محمود مبروك

أم حلاوتهم

مجموعة قصص قصيرة

عزيزي القارئ..

أقدم لك مجموعة من القصص القصيرة، تشكل كل منها؛ لقطة، أو مشهدًا من الحياة الواسعة، دون ارتباط بين أي منها، وأخرى. ولا تشكل في إجمالها شريطًا متصلاً، ولا مساحة زمنية من حياة واحدة، فهي مجموعة من الانتقاءات، قد تعبر عن ألوان الطيف التي تشارك في رسم لوحة الحياة... لكن اللوحة تضم عديدًا من الألوان الأخرى.

المؤلف

مرســـم

كانت جامعة القاهرة تمثل له حلمًا، له بريق خاص لا تقارن به جاذبية الجامعات الإقليمية، لذلك كانت الترتيبات التفصيلية جاهزة قبل ظهور نتيجة الثانوية العامة، وبمجرد ظهورها سافرت الأسرة إلى القاهرة، ليتقدم ثروت بأوراقه إلى مكتب التنسيق، ولكي يضعوا الرتوش الأخيرة على الشقة التي خصصها خاله عابدين وجهزها كما ينبغي، في الدور الأرضي من عمارته التي يشغل مع أسرته الطابق الثاني منها...

كانت العلاقة بين الحاج عابدين وشقيقته فوزية والدة ثروت حالة نموذجية لعلاقة الأخ مع أخته، كانت تصغره بسنتين ولذلك كانت أقرب شقيقاته إليه وخزانة أسراره وراعية حبه لزميلتها وصديقتها سعاد حتى تزوجها، وأنجب ابنه البكري ثروت، فصممت على تسمية مولودها الذي وضعته بعد عام واحد، ثروت أيضًا.

كان ثروت وثروت يقضيان كل أجازاتهما معًا في القاهرة أو في كفر الدوار، وكانا يردان معًا على كل نداء باسم: ثروت، حتى اتفقا على أن يكون ثروت عابدين هو ثروت "وَنْ"، بينما يطلق على ثروت حمادة، ثروت "تو" تمييزًا لهما...

ولما عرض الحاج عابدين استضافة ابن شقيقته ثروت خلال سنوات الدراسة الجامعية، تحرج والده الأستاذ/ حمادة لأن عابدين لديه بنتين في سن متقارب ولا تجوز إقامة ابنه إقامة كاملة ودائمة في نفس المسكن رغم ما أبداه الحاج عابدين من تبسط وحاول إسقاط الحرج عنه بمقولة أنهم "اخوات – وكلهم ولادنا" وما إلى ذلك.

لذلك توصل الحاج عابدين إلى صيغة ترضي الجميع في تخصيص مسكن خاص يقيم فيه ثروت وثروت ويكونان تحت رعاية وملاحظة الخال وزوجته.. ووافق الجميع.

بدأ العام الدراسي، وأقام ثروت وثروت في الشقة المخصصة لهما؛ غرفتي نوم، وغرفة للسفرة وأنتريه، بها خط تليفون، وسخان وثلاجة صغيرة وغلاية كهربائية لعمل المشروبات الساخنة، ولم تكن لهما حاجة إلى مطبخ يحوي أجهزة لإعداد الطعام، فقد كانت وجباته متاحة لهما، إما بالصعود وتناولها مع الأسرة وخاصة في وجبة الغذاء، أو تنزل الخادمة بها إليهما سواء في صينية عليها أطباق، أو على هيئة ساندويتشات، كما في وجبة العشاء.

كان الحاج عابدين سخيًا مع ابنه، فمصروف يده يفتح بيتًا لأسرة من خمسة أشخاص، علاوة على سيارة خاصة به، وشاليهًا في منطقة سقارة أعده مرسمًا له حيث كان طالبًا في السنة الثانية بكلية الفنون الجميلة عن ميل وهواية للتصوير الذي أبدع فيه منذ الصغر، ولم يكن الأستاذ/ حمادة أقل كرمًا من عابدين مع ابنه في الغُربة، وحتى لا يكون عالة على خاله، فكان يداوم على إرسال النقود، والهدايا العينية له لكي يقدمها لأسرة خاله..

دق جرس التليفون، وكان ثروت تو وحده في الشقة فرفع السماعة ورد على الطالب:

- آلو.
- آلو. ثروت؟
- هو بعينه مين معايا؟
- سوسو. باعتني أبو شادي. هو اللي اداني النمرة. نتقابل فين؟ بس خليك عارف إني تحت أمرك ثلاث ساعات من دلوقت.
- حلوين قوي.. رضا، وأقل من كده.
- اتفقنا حاجيلك فين ولا نتقابل إزاي؟
- انت بتكلميني منين؟
- أنا ف أول شارع الهرم.

- كويس قوي. انتظريني على محطة أتوبيس نصر الدين بعد نص ساعة وأنا حاعدّي بتاكسي وأقف بعد المحطة على طول، وادي احنا عارفين أسامي بعض. ماشي؟
- ماشي. باي.

أغلق الخط، وتعجب من تصاريف الزمن، وحاول تذكر أي شيء عن صديق أو زميل أو قريب اسمه أبو شادي، لكنه كان متأكدًا بأن الاسم لا يعني شيئًا وأنه لم يمر عليه يقينًا، فهو اسم مميز من الصعب نسيانه، وقال: لعله صديق ثروت وَنْ، وأنهما يتبادلان المجاملة، ويقتسمان اللقمة الحلوة...

قام على الفور فمشط شعره، وألقى على نفسه زجاجة بارفان وارتدى ثيابًا أنيقة تناسب اللقاء الأول، وتأكد من وضع نسخته من مفاتيح الشاليه في جيبه وانطلق إلى الشارع فاستوقف أول تاكسي مر من أمامه وفتح الباب الأمامي فأجلس نفسه إلى جوار السائق بينما وجهه إلى مقصده:

- سقارة، بس حانمر على أول الهرم..

سرح في ذلك الموقف الغريب، وحاول تحليله أو فهم ظروفه ووردت فكرة أن يكون ذلك "مقلبًا" من أحد الأصدقاء أو من ثروت وَن ليختبر تصرفه، لكن تفكيره في كيفية التعرف على سوسو التي لم يرها من قبل شغله بأكثر مما شغله تحليل الموقف..

وأفاق على صوت السائق وهو يسأله:

- إحنا وصلنا نصر الدين. أركن بعد الركاب اللي واقفين على محطة الأتوبيس دول على طول؟
- آه. على طول.

وانحرف التاكسي إلى جانب الطريق مهدئًا من سرعته. وقبل أن يستكمل توقفه كانت فتاة رائعة الجمال، ممشوقة القوام، أنيقة الملبس حلوة الطلعة تسرع الخطو إلى شباك العربة المجاور لثروت سائلة:

- ثروت؟

- هو بعينه.

فتحت الباب الخلفي ودلفت إلى المقعد، وقبل أن تستقر بجانب الباب الأيمن، كان ثروت قد نزل من العربة ولحق بها على المقعد الخلفي، فأخلت مكانها مقتربة من الباب الأيسر وجلس إلى جوارها ليشم عطرًا طغى على ما أغرق نفسه فيه، ونظر فإذا إشراقة صبوحة وتقاطيع منمنمة، وشعر مرسل كجدائل الحرير الأسود يغطي ظهرها حتى الوسط.

لم تسعفه كلمات تكشف أي غموض، واكتفى من الحين للحين بسؤال لا معنى له، ولا مغزى لإجابته:

إزيك يا سوسو؟.. إيه الأخبار؟ أنا سعيد إنك اتصلتي بيّا... إلى آخر هذه التعبيرات التي تصلح في أي مناسبة، وتوجه لأي شخص دون توقع لفهم شيء أو الوصول إلى مدلول في إجاباتها.

وصلت العربة إلى المكان، وأمر السائق بالوقوف ونزلا من السيارة ثم أعطى السائق أجرة التوصيل، ومن الواضح أنها كانت سخية لأنه أعطاه ورقة نقد واحدة، ولما هم السائق بإخراج ما في جيبه من عملة لرد الباقي، أشار ثروت إليه بيده قائلاً:

- خلاص يا أسطى. خللي الباقي.

وظهر مدى كرمه في العطاء من رضا السائق الواضح وشكره الجزيل قبل أن ينطلق بسيارته.

اتجها إلى باب الشاليه، ففتح الباب وضغط على زر الإضاءة المجاور للباب فأضاء داخله، ودخلت، وأغلق الباب..

أنتريه بسيط؛ سوفا يُواجهها كرسيان فوتيه، وبينهما ترابيزة صغيرة. جلست على السوفا، وهم بالجلوس على الكرسي المواجه فابتدرته بصيغة متعجلة سائلة:

- إنت لسه حاتقعد. قوللي أقلع فين، عشان احنا كدة معانا ساعتين وأقل من نص.

فاجأه السؤال، وتعجب من جرأتها، ومن تعجلها. قال:

- يا ست الوقت معانا. هما ساعتين شوية؟ أنا حاعمل حاجة سخنة نشربها، وبعدين نبدأ.
- لا.. لا.. أنا ما بشربش حاجة. ومعلش أنا عندي الشغل شغل، ما أحبش تضييع الوقت. على فكرة. يا ترى إنت عارف أنا باخد كام في الساعة؟ وعلى فكرة أنا باحسب الوقت من أول ما نتقابل مش من أول ما يبدأ الشغل.

أصابه الذهول، وأسعفته مزحة للخروج من ذهوله فقال لها:

- طيب ليه ما قلتيش كده في التليفون عشان كنت أجيب ال ستوب ووتش، عشان نحسب الوقت الضايع؟
- هو انت مش عارف النظام؟ أبو شادي قال لي إنك بتتعامل معاه بقالك مدة.
- آه.. آه.. أنا عارف كل حاجة بس باضحك معاكي.
- طيب يالا ربنا يخليك، عشان ما نضيعش وقت.
- ماشي. خشي الأوضة دي واقلعي. وأنا حاعمل شاي سريع مع سيجارة كدة يعملوا شغل برضه عشان نركز.

دخلت الغرفة التي أشار إليها، ودخل هو إلى المطبخ فأعد كوبين من الشاي، وضعهما على المائدة في الأنتريه، ولم تكن سوسو قد خرجت من الغرفة فاتجه إلى غرفة أخرى حيث استبدل ملابسه ببيجاما وشبشب زحاف (سليبر) وعاد

إلى الأنتريه فإذا سوسو شبه عاريه، أو هي عارية بالفعل، وقبل أن يستجمع نفسه من المفاجأة إزاء ذلك العري السريع والبداية المباشرة فاجأته بسؤال استنكاري متضمنًا شيئًا من الاحتجاج:

- إنت قلعت ليه؟
- يعني إيه؟ أنا اللي قلعت؟
- أيوه انت حاتشتغل بالبيجاما؟
- كبداية ممكن. اتهيألي، ولا لازم الملابس الرسمية.
- إنت ما عندكش لبس للشغل؟
- هو في لبس للشغل؟
- أيوه عشان ما تتوسخش. إنت حر. عمومًا ياللا نبدأ.
- هنا؟
- لأ طبعًا، هو هنا ينفع؟
- طيب ولما عارفه إن هنا ما ينفعش خرجتي ليه؟
- خرجت منين؟
- من الأوضة اللي انتي قلعتي هدومك فيها.
- وهي دي تنفع؟ دي لا فيها أدوات، ولا حاجة تناسب الوضع اللي انت عايزه. على فكرة انت كونت رأي عن الوضع اللي عايزني فيه. ولا أساعدك، واقترح عليك حاجة؟
- يا نهار اسود. إيه التفاصيل دي كلها. دا ناقص نعمل مقايسة ونحط البنود التفصيلية.
- يا سيدي، لا مقايسة ولا دياولو، ياللا نبدأ عشان أنا مضطرة أسيبك حتى لو ما كنتش خلصت.
- يا سلام؟ قد كدة انتِ ملتزمة بدقة؟ والوقت بس هو اللي يهمك؟

- أكيد، هو أنا ما فيش ورايا إلا انت؟
- إيه؟ وراك مواعيد ثانية كتير ؟
- طبعًا أنا ربع الطلبة بيتعاملوا معايا.
- على كده حضرتك تابعة لإدارة الجامعة؟
- إحنا حانقضيها هزار تقريبًا، وباين عليك مش بتاع شغل. أنا بصراحة حاقول لابو شادي عـ...
- كمان فضيحة، وحاتجرسيني، لا يا ست. إن شاء الله حاتقولي لابو شادي أنا عايزة أروح لثروت على طول.
- طيب ياللا وحياة والدك. وياريت تكون عارف الساعة بكام قبل ما نبدأ.
- يا ست بتقاطعي ليه. لو شغلك عجبني حا اديلك اللي انت عايزاه.
- يعني إيه اللي انا عايزاه؟ دا نظام معروف، وأكيد انت اتعاملت مع غيري وعارف بتدفع إيه.
- لا. دول كلهم كوم وانتي كوم. أنا بصراحة كل اللي اتعاملت معاهم يطلعوا زبالة بالنسبة ليكي.
- لأ أنا ما احبش إنك تقول كدة حتى عشان تجاملني، دول برضه زميلات مهنة.
- يا خبر أبيض على الروح الرياضية والإحساس بالولاء لبنات المهنة زميلاتك عضوات النقابة.
- إحنا للأسف ما عملناش نقابة مع إنها فكرة كويسة.
- بتهزري طبعًا.
- واهزر ليه؟ دي فكرة والله، وأنا حابدأ اتفق مع بعض الزميلات ونحاول نقابل العميد لأن الكلية ممكن تساعدنا في إشهار النقابة.
- كلية؟ كلية إيه؟
- تفتكر كلية الحقوق مثلاً؟ كلية الفنون الجميلة طبعًا..

ورغم أن اسم الكلية كان من الممكن أن يطرق رأسه وينشط فكره، إلا أنه لم يكن في حالة من التوازن أو قريبًا من التركيز الذي يمكنه من الإفاقة فتساءل ببلاهة:

- الفنون الجميلة؟ وانتو علاقتكم إيه بالفنون الجميلة؟

وأجابت باستهزاء واستخفاف بعقله:

- أمال أحنا شغالين مع مين؟ هي أي موديل حاتشتغل مع مين إلا مع الفنون الجميلة وأحيان بسيطة مع الفنون التطبيقية؟!

هنا فقط أفاق.. أفاقته كلمة موديل.. إذن هي موديل والمقصود لم يكن هو بل ثروت وَنْ .. فليصلح ما أفسده – وحمد الله أنه فهم قبل الخطوة التالية التي كاد أن يخطوها، ولو فعل لعدم كل وسيلة للمعالجة، فاصطنع موقفًا ترتب عليه أن فتح بابًا ودخل إلى مكان غير الأنتريه فأضاء مصباحًا ثم أطفأه بسرعة – وعاد وبادرها:

- شوفي يا ست. إحنا اتكلمنا وكان مفروض نبدأ شغل بس الساعة وشوية اللي فاضلين مش حايكفوا إني ألملم شغل ثروت ابن خالي، وأحط اللوحة بتاعتي ع الحامل، وأحضر الألوان والفرش والباليتات فاحنا حانعتبر انهارده تعارف وأنا على فكرة في كلية الآداب وهاوي رسم واللي شجعني ابن خالي هو اللي طالب في الفنون الجميلة علشان كدة أنا أول مرة أتعامل مع موديل .. وحاارتب مع ابن خالي إن مواعيدنا تبقى مع بعض في يوم واحد والمشوار يجيب همه..

وسألته باستنكار وشيء من السخرية:

- ولما انت مش ثروت، ليه قلت انك ثروت.
- عشان أنا ثروت برضه، ولما واحد يلاقي رزقه في رجليه يبقى حمار لما يرفس النعمة.

شكرها وطلب منها ارتداء ملابس الخروج، وأثناء ذلك أعد كوبين من الشاي وبعض البسكويت ودعاها لمشاركته فيها كبديل عن الكوبين اللذين أصبحا مثلجين، وحين حاولت الاعتذار قال لها:

– أنا فاضل من وقتي نص ساعة مدفوع الأجر. ممكن أمارس حقي وأصمم تشربي معايا الشاي؟

– بكل تأكيد. وفرصة سعيدة.

انتهيا من شرب الشاي وخرجا فسارا حتى صادفا سيارة تاكسي، استقلاها، وفي التاكسي طلب منها أن تتصل بعد يومين للاتفاق على الموعد التالي..

وحين طلب منها ألا تقص على ثروت ما حدث فهمت مقصده في البداية، وقدرت حقه في هذا التفكير الذي توافق مع مجريات الأحداث.. وظل هو على شكه في فهم سوسو لحقيقة نواياه..

وفي الظلام الذي لف العربة وهي تمرق في طريق الهرم كان – من الحين للحين – يختلس نظرة على وجهها فيلمح فيه ابتسامة أكدت له أنها تستعيد تذكر ما حدث.. وأنها تسامحت معه وقدرت ما كان.

****

مدام حريري

(١)

- مساء الخير يا باشا.

قالها للضابط الجالس بغرفة النوبتجية في قسم الشرطة، بينما امتدت أصابعه إلى جيب قميصه فأخرج كارنيهاً، قدمه إلى الضابط، الذي تعرف بسرعة على شكل الكارنيه، ولمح صورة صاحبه فأيقن أنها للواقف أمامه، الضابط بالقوات المسلحة، فأشار إلى مقعد إلى جواره بينما قال له:

- اتفضل استريح يا افندم.

جلس إلى جوار ضابط الشرطة ومال برأسه نحو أذنه قائلاً في شبه همس:

- نقيب فؤاد بالقوات المسلحة.
- أهلا يا افندم. أأمر.

أنا شاهد على اللي حصل بين الجماعة اللي واقفين قدامك دول.

- يعني حضرتك حضرت اللي حصل؟ طيب ياريت حضرتك تقوللي شهادتك، وهل تحب نثبتها رسمي، يعني نخطر الشرطة العسكرية؟ ولا حاتشهد وِدّي لمجرد التوضيح بدون إثبات في المحضر؟
- والله الأفضل تبقى ودي لسببين: الأول؛ تقصير الإجراءات والوقت، والسبب التاني، وجود جماعة من أصل أجنبي ممكن يثير حساسية لصفتي كضابط جيش.
- ماشي يا افندم. اتفضل.
- البنات الثلاثة الواقفين من أصول أجنبية زي ما هو واضح من لكنتهم في نطق اللغة العربية واستعمال كلمات كثيرة من اللغات الأجنبية وخصوصاً الفرنساوي. وكانوا قاعدين مع بعض أصدقاؤهم على ترابيزتين في أمريكين سليمان باشا..

واتصادف إني كنت قاعد على ترابيزة قريبة منهم، لما دخلوا الشباب الحلوين دول، وساقوا الرزالة عليهم خصوصاً لما عرفوا إنهم أجانب، وضغطوا عليهم علشان يقوموا ويخرجوا معاهم، وإما يعملوا لهم مشاكل هما مش قدها. على حد قولهم.

علق ضابط الشرطة بسرعة:

- آه باين عليهم عيال صايعة، وإن شاء الله يتربوا.. ثم وجه كلامه للفتيات:
- إيه اللي حصل؟

وهمَّ أحد الشباب يجيب على السؤال، فقاطعه الضابط بشدة:

- إخرس ياله. أما اسألك ابقى جاوب يا روح أمك.

أجابت إحدى الفتيات في رقة وبداية اطمئنان:

- احنا بنقعد في الامريكين شوية وقت كل يوم، انهارده احنا قاعدين برضه سوا سوا على ترابيزة واحدة.. بعد شوية إجم الثلاثة شبان دول وقالوا: "ياللا قوموا معانا". إحنا سألنا: نقوم فين؟ قالوا: "تيجوا معانا البيت". إحنا قلنا "علشان إيه نروح البيت؟" هما قالوا:..

وقاطعها الضابط:

- خلاص يا آنسة مفهوم.. ثم وجه حديثه للشباب:
- بلطجة يعني؟ ما هو سحر عينيكوا كفاية عشان تقولوا لهم قوموا؛ يقوموا.

ثم نادى بصوت جهوري:

- يا شاهين. شاهين..

ودخل رجل طويل القامة، عريض المنكبين مفتول الشوارب، في ملابس مدنية، بدا لأول وهلة شرطياً سرياً (مخبر) فدق قدمه في الأرض وأدى التحية للضابط قائلاً:

- أأمر يا سعادة الباشا.

قال الضابط، خدوا الافندية دول وعلموهم يتعاملوا إزاي مع أولاد الناس، مش اولاد الكلب اللي زيهم. ورد المخبر:

- أوامرك يا سعادة الباشا.

بينما نظر إلى الشباب بقسوة بادية تنبئ عن الخطوة التالية وكيف سيتم التصرف معهم. ثم هوى بيده اليمنى على قفا الشاب الأول ممسكاً بياقة قميصه، وهوى بيده الأخرى على قفا الشاب الثاني وجذبه من قميصه أيضاً وزجر الثالث قائلاً بلجهة آمرة:

- ياللا يالا قدامي.

بينما ركله في مؤخرته بقوة.. وخرجوا من أمام الضابط.

سأل النقيب فؤاد عما إذا كان مطلوباً منه شيء ما أم ينصرف، فأجابه الضابط:

- لأ اتفضل متشكرين.. والآنسات كمان اتفضلوا مع السلامة.

خرج الضابط.. وخرجت الأجنبيات الثلاث، حيث شكرنه على شهامته واستسمحوه أن يرافقهن إلى الامريكين لكي يستكمل مشروبه الذي حرم نفسه منه لمرافقتهن، وأجاب الضابط بالشكر لهن لارتباطه بموعد مع صديق، فطلبوا منه أن يرافقه هذا الصديق..

ركبوا معه في سيارته، وفي الطريق التقى بمازن؛ صديقه الذي تأخر عن موعده نصف ساعة حيث قدم له المجموعة التي لم يعرف أسماءهن بإشارة من يده إليهن، فقدمن هن أسماءهن على التوالي:

هيرمين – ليديا – أوديل...

ووصلوا إلى الأمريكين حيث صممت الأجنبيات الثلاثة على دعوتهما على فنجان كابتشينو، وعلى استحياء – ونتيجة لتصميمهن – قبلا الدعوة، على غير ما اعتادا كرجلين شرقيين؛ أن يقبلا دعوة من نساء يدفعن هن حسابها.

وبعد قليل وقت، استأذن النقيب فؤاد بينما بقي مازن حيث تبادل أرقام التليفونات مع ثلاثتهن. وبعد مزيد من التعارف، حيث قدم نفسه كصحفي، وقدمن أنفسهن:

هيرمين وليديا. شقيقتان من أصول أوروبية مختلطة، ولدتا في الإسكندرية وعاشتا فيها مع الأهل حتى توفى الوالدان على التوالي منذ عشرة سنوات وثمانية سنوات فانتقلتا للعيش في القاهرة، بينما استمرت أوديل في الإسكندرية رغم عودة والديها إلى أوروبا. وسأل مازن:

- يعني انتي ضيفة في القاهرة يا أوديل؟
- مظبوط. قدامي بس خمسة يوم هنا.
- وقاعدة فين يا أوديل؟ مع هيرمين وليديا؟
- لا.. لا، قاعدة في أوتيل مع واحد صاحبي. بس هوه مسافر بكرة عشان شغله في بلد صعيدي.
- طيب يعني ممكن أعزمك.. أنا عندي شقة قريبة هنا في شارع عبد الحميد بسيوني جنب سينما أوديون، ممكن أديلك مفتاح..وأنا عايش في الدقي مع العيلة. فاهماني طبعًا؟
- مرسي.. لو مش حايضايقك.. ممكن.. ولو انت عايز تروح في شقتك أي وقت. طبعاً معاك واحد مفتاح تاني..
- أكيد.. خلاص حانسيب هيرمين وليديا عَشَر دقايق أوريكي الشقة ونرجع..

وقفت أوديل، وأشارت بيدها لرفيقتيها مستودعة إياهما ومضت برفقة مازن.. وما أن خرجا من المحل حتى تأبطت يده في تلقائية وسرعة جاءت مفاجئة لمازن، تماماً كقبولها الإقامة في شقته خلال وجودها في القاهرة، ثم مصاحبتها له إلى الشقة.

لم يكن مازن قد تعرف على أجنبية من قبل، كان يسمع عن بساطة العلاقات بين المرأة والرجل.. وكان يشاهد أفلاما أجنبية يلاحظ من خلالها انعدام القيود، وأن الجميع يفعلون ما يرونه مرضياً لهم على ألا يخدشوا المجتمع من خلال ذلك..

سرح مازن للحظة وأوديل تسير إلى جانبه عبر شارع طلعت حرب، غير مصدق لتلك الألفة متناهية السرعة.. ولاحظت أوديل سكوته فسهلت عليه مهمة الحوار بطرح طرف حديث:

- انت عندك شقة دي من زمان، مازن؟
- لا.. لا، بقى لي ست شهور بس.
- في حد صاحبك.. أو قريبك بييجي عندك شقة؟
- لأ.. قرايبي بيزوروني في بيت العيلة في الدقى، وأصحابي بيقابلوني برة البيت.

وأوصلته بجوابه إلى النقطة التي أرادت أن تستوثق منها، فسألته:

- طيب وعشان إيه انت عملت شقة دي إذا كان مافيش حد بيزورك فيها؟

تلعثم قليلاً، ثم تجرع شجاعة لم يكن بحاجة إليها فيما يقول:

- لأ ساعات واحدة صديقتي بتيجي نقضي وقت مع بعض، لكن أنا افتكرت إنك بتسألي عن أصدقائي الرجالة.

وتساءلت بمكر مزجت فيه الطبيعة الأوروبية بسلوك أولاد البلد:

- طيب مش خايف صاحبتك مرة تيجي الشقة وتلاقيني أنا فيها؟ ممكن كده أنا أسبب سكاندال علشانك.
- لا مافيش فضيحة ولا حاجة. صديقتي مامعاهاش مفتاح للشقة ومابتجيش الشقة إلا معايا. بعدما نتفق ونتقابل بره، أو نتفق تيجي على الشقة وأكون أنا سبقتها وموجود فيها..

وعادت تسأله من جديد:

- إذا كنت أنا موجودة خمسة يوم. يعني مش حاتقابل صاحبتك فيها؟
- لا. مش حاقابلها، وخللي المفتاح معاك علشان كل ما تنزلي مصر تنزلي فيها بس تعملي تليفون قبلها عشان أعرف.. وكمان أشوفك – ولا مش حانشوف بعض؟
- إزاي؟ إحنا كده أصحاب. بس مش لازم يكون فيه مشكلة بسببي.
- مافيش مشاكل ولا حاجة..

واستطرد:

- احنا وصلنا. هي دي العمارة، والشقة في الدور الخامس..

ودلفا من خلال ردهة مؤدية إلى المصعد، وبعد لحظات دس المفتاح في الباب وأداره ففتح الباب ودخلا إلى الشقة الصغيرة المليئة باللمسات الجمالية التي أثارت رضا وإعجاب أوديل فصاحت قائلة:

- كوكيت! كوم جولي! شقتك حلوة كتير مازن..

وشعر مازن بالارتياح لكلماتها، وسألها:

- يبقى خلاص تجيبي شنطتك انهارده، وقبل ما تسافري بليلة اتصلي بي من التليفون اللي ع الكومود في أوضة النوم على نمرتي في الدقي. النمرة في الإندكس اللي جنب التليفون بس حا اكتبهالك بأرقام أفرنجي عشان تعرفي تقريها.

وأخرج كارتا من جيبه وكتب الرقم بالإنجليزية إلى جوار الرقم المطبوع بالعربية، ومد يده يسلمها الكارت، ثم سحب يده قائلاً:

- ولا تعالى أحطه جنب التليفون علشان مايضيعش.

وفتح غرفة النوم فدخلت أمامه تستطلع الجزء المتبقي – والأهم – من الشقة، جالت ببصرها في أنحاء الغرفة، وتفحصت سقفها وجدرانها، ومحتوياتها، ثم شهقت شهقة عبرت عن منتهى الإعجاب وقمة الإنبهار:

- أوه.. عندك ذوق كتير مازن، أوضة بتاعة نوم عندك جميلة.

وتحركت بضع خطوات في اتجاه باب داخلي فتحته لتجد حماماً داخلياً أنيقاً، ثم عادت في اتجاه كرسي فوتيه أمامه منضدة صغيرة عليها زجاجتين تعرف محتواهما جيداً، وسألته بينما وقع بصرها على ثلاجة صغيرة إلى جوار السرير:

- انت كمان بتشرب مازن، أنا أعرف إن مسلمين مش بيشربوا خمرة.
- تمام.. كلامك صح وأنا قليل لما بشرب، ودا مشروب منعش وخفيف، أنا باخلط شوية دراي جين على شوية أكتر لايم جوس، وكاس واحد مش أكتر.
- يا سلام.. عندك مزاج عالي مازن.. طيب مش حاتقدم للضيفة بتاعتك درنك؟ يعني الـ وِلْ كَمْ؟ ولا انت بخيل؟
- لا.. لا دا أنا عكس كده خالص.. أنا بس كنت مأجل الكلام ده لوقت أوسع، عشان أنا عارف إن أصحابك منتظرينك.
- هما كده.. كده موجودين، دول زي موظفين، تسعة الصبح لغاية واحدة الضهر، ومن خمسة بعد الضهر لغاية تسعة بالليل في الامريكين؛ اللي عندها مشوار ولا واحد شغلة تروح تخلص وترجع على المحل، خصوصاً مدام ماركو ومدام إينو وكمان مسيو بيكيلو دول على طول على طول موجودين ومعاهم أخبار مين جه هنا.. مين راح هناك..
- يعني معانا وقتنا، ومافيش قلق يا أوديل؟
- خالص.. خالص..

قالتها، بينما أكملت جولتها في الغرفة، ففتحت ضلفة الدولاب الصغير المواجه لباب الغرفة فرأت على الرف قميصين، وتحتهما شماعات يحمل بعضها بنطلوناً أو (تي شرت) ثم توقفت جولة بصرها على قطعة من الملابس الحريمي، وصاحت:

- بيبي دول؟! دي بتاع صاحبتك مازن؟

وأجابها، وكأنه ينفي تهمة:

- لأ.. لأ. دا أنا لسه مشتريه امبارح، وماحدش لبسه لسه.. لو تحبي تستعمليه، استعمليه، واعتبريه هدية مني.

مدت يدها إلى الشماعة وعليها البيبي دول فحملتها ثم سارت في اتجاه الحمام وفتحت الباب ثم انتقلت إلى الداخل وأعادت إغلاق الباب، وسرح مازن لحظات يستعرض فيها التطورات الخاطفة للأمور، ويتهيأ للقادم منها؛ فحين عرض عليها استعمال البيبي دول لو أرادت، كان يقصد عدم ممانعته في استعمالها له وقت تشاء، ولم يقصد الفورية؛ وفي حضوره، ولكن، رب ضارة نافعة كما يقولون، جلس إلى الفوتيه أمامه، وأمسك بكأسين مقلوبين على صينية فوق المنضدة فعدلهما ثم أعد كأسين من الجين، وأخرج ليمونة من الثلاجة قطعها إلى ترانشات وضع على كل كأس إحداها، وما أن انتهى من ذلك حتى انفتح باب الحمام، وخرجت امرأة هي من تطلق عليها صفة الأنثى؛ من لون البشرة إلى تفصيلات وتقاسيم الجسد، إضافة لما رآه سابقاً؛ تقاطيع دقيقة خالية من الغلظة إلا في الشفاه وخصلات مهدلة من الشعر الناعم الأصفر، وعيون زرقاء ملؤها النداء.. وقف بنشاط في حركة سريعة ومفاجئة واتجه إليها ماداً يديه في اتجاهها، فمدت يديها لتلتقي بيديه، وبتلقائية شديدة طبع على خدها قبله.. ردتها إليه بشكل فوري وقادها إلى المائدة حيث رفع الكأسين اللذين أعدهما، فقدم إحداهما إلى أوديل التي أمسكت بها، ورفعتها إلى أعلا فرفع مازن كأسه قائلاً لها:

- آفوتر سانتي..

وأجابته:

- ألا فوتر..

ثم قربا كأسيهما حتى تلاقيا برفق وبدآ يشربان نخب اللقاء الأول.. وقبل أن ينتهيا من الشراب، كان التقارب بين جسديهما أكثر فأكثر، حتى تلامس الجسدان

ثم تلاصقا، ورفعت ذراعيها حيث طوقت رقبته، ورفعت رأسها لتقترب بها من مستوى رأسه ثم أطاحت بها إلى الخلف قليلاً فارتفعت ذقنها، وأصبحت شفتاها على أقرب مسافة من شفتيه في نداء لقبلة رآه في عينيها في نفس اللحظة.. وكانت.. ثم تبعتها قبلات انتقلت من الشفاه إلى كل نقطة من وجهها ثم رقبتها حتى منبت الكتفين.. وتوقفت فجأة، لكي يستلقيا بنفس الوضع من الالتصاق واحتضان اليدين على الفراش المجاور لهما.. وتسارعت الخطوات واحتدمت جزوة الرغبة وكأن بينهما شوق شهور أو سنين.. ووصل الأمر منتهاه فضحكا كأنما يستغربان ما حدث بكل هذه الرغبة، وبهذه السرعة..

اصطحبها مازن من جديد إلى الامريكين حيث وجدا الصحاب كما هم كأن لم تمر لحظات.. وتوقفت الأحاديث المتشابكة، وانفجرت ضحكة فيها من المعاني والرسائل، وضح منها أن الجميع فهموا ما وقع.. وظهر جيداً أن الجميع يدشنون ويباركون علاقة جديدة تلقى رضاهم وتعبر عن شعورهم بأنها لو كانت صفقة فطرفاها رابحان..

جلس الـ "كوبل" الجديد مع باقي الـ "شلة" تجمعهم ثلاثة ترابيزات متلاصقة وتحيطها عشرة كراسي، وقدم بيكيلو كرسيه إلى حيث يجلس مازن، وبحاسة السمسار مال على مازن يسأله:

- انت واخد شقة بتاعتك إيجار؟
- أيوه
- بكام واحد شهر؟
- ثمانية جنيه.. ودفعت ميت جنيه ضايعين.
- كام أوضه مسيو مازن؟
- أوضة واحدة وريسبشن.
- مش كتير ثمانية جنيه علشان إيجار شقة أوضة واحد؟

- والله دي أحسن حاجة لقيتها ف وسط البلد..
- لو فيه شقة إيجار ستة جنيه وفيه موبيليا طلياني كومبليه بواحد ألف جنيه أحسن علشانك؟
- والله لو اتصرفت في الشقة اللي معايا ممكن، أو ياخدها واحد صاحبي.. أسبوع أرد عليك..
- كويس قوي علشان صاحب شقة حايسيبه بعد أسبوعين.

صمت لحظة ثم استدرك:

- باردون أخدتك من الكومباني.

ثم أخرج كارتًا يحمل اسمه ورقم تليفونه وقدمه لمازن، الذي أخذه بينما أخرج كارتا باسمه وقدمه لبيكيلو..

ولما كان الجميع يتحادثون باللغة الفرنسية، وحين انتبهوا لفراغ مازن من صفقة بيكيلو، قالت مدام ماركو بلكنة أقرب للفرنسية من العربية:

- ما ألش مسيو مازن، احنا بنتكلم كالابريزي، حاول تتعلم كالابريزي.

واستغرب الكلمة فهو لم يعرف ولم يسمع بلغة بهذا الاسم. وقبل أن يسألها استطردت ماركو قائلة:

- كالابريزي يعني ساكالانس؛ شوية لغة إجريكي، شوية فرنساوي.. شوية إيطاليانو، مع شوية عربي، كله سوا سوا، يعمل لغة كالابريزي..

ضحك الجميع، وضحك مازن وأمن على الفكرة قائلاً:

- عندنا نقول: اللي تغلب به.. العب به.. يعني ماتقفش.. شغال يعني.

ولاحظ مازن خلال الدقائق التي أنفقها في هذه الجلسة أن البعض طلب مشروباً، أو طعاماً خفيفاً، بينما لم يقدم لغيره بعضاً منها، أو حتى عرضا بدعوته إلى شيء منها، فاستراح للنظام الذي رأى فيه أسلوباً عملياً مريحاً.. وحين استأذن في الانصراف، دعته ليديا للحضور كلما مر بالقرب من المكان وداعبته متسائلة:

- ولا لازم أوديل معانا علشان تيجي؟

تجاهل السؤال ورد في عمومية:

- لأ إن شاء الله آجي أشوفكم. إنتم مجموعة "دوس، وجانتي". كالابريزي. ماشي؟..

وضحك.. وضحك الجميع.. وانصرف بينما أشار بيده قائلاً: شاو!

(٢)

التقى النقيب فؤاد بصديقه مازن وخلال حديثهما المعتاد في كل لقاء عن السياسة والحرب والحب والزواج، عن العائلة والمال، والصداقة والذي كان يستغرق الساعات في كل مرة، على مدى سهرة كاملة في بيت أحدهما أو في مناسبة لدى صديق مشترك. توقف فؤاد فجأة عن الحديث وسأل مازن:

- عملت إيه مع الخواجات اللي سبتك معاهم في الأمريكين؟
- اسكت يا فؤاد يا خويا، انت فتحت لي كنز.. مجموعة ماتتخيرش عن بعضها، بس أنا قلت الطمع يقل ما جمع واكتفيت بعلاقة بواحدة منهم.. ومعايا مفتاح المغارة لو اتزنقت..
- طب وفايزة ؟
- يعني هي فايزة كانت مراتي.. أهي موجودة، لأن أوديل من إسكندرية، وحاتبقى مقابلاتنا بظروفها..
- انت عامل لي شهريار ياسي مازن ما تخف يا حبيبي عشان تعوم.
- لا دا أنا كده كويس قوي وعايم برست، وباك، وفراشة، ودولفن، وزي ما انت عايز.. وبعدين البركة فيك يا حبيبي ولازم يكون لك من الحب جانب.
- إبعد عني.. وخليك في حالك، أنا لا عايز جانب، ولا أقرب من أجانب.
- دول كلهم مصريين يا فؤاد، يا جنسية بالمولد.. يا إقامة، وأنا شفت البطاقة بتاعة أوديل.

- يا عم مازن أنا ظابط في الجيش وأي علاقة مع طرف من أصول أجنبية يعرضني لمشاكل أنا في غنى عنها، وخلينا في المثل بتاعنا: يا نحلة لا تقرصيني، ولا عايز منك عسل.. ومن الناحية التانية ما انت عارف إني خاطب وقدامي مشروع جواز واخد كل وقتي وتفكيري.. وفلوسي..
- وهو المشروع ده مش محتاج تدريب؟ أنا باقدملك منحة مجانية؛ نسخة من مفتاح الشقة، ورد لجميلك أعرفك بأحلى واحدة فيهم.. و..

وقاطعه فؤاد:

- انت خلاص حا تتقمص دور الشيطان يا مازن؟ خليك في طريقك وأنا ف طريقي واحنا أصحاب ومتربيين مع بعض لكن مش لازم نبقى نسخ من بعض.. الاختلاف دا بيضيف متعة وتشويق انت لك ظروفك.. وأنا لي ظروفي..

وأمن مازن على ما قاله فؤاد، واستمرت لقاءاتهما رغم التباعد النسبي لانشغال كلٍ بما يعنيه.. وأصبح مازن معنياً أكثر بحياة جديدة، وتعددت علاقاته – وتوطدت – بمجتمع كامل يشغل حيزاً غير قليل من وسط القاهرة؛ نساء كثيرات، ورجال قليلون من أصول أوروبية معظمهم من اليونان وأرمينيا، وإيطاليون وبولنديون ومن كل دول أوروبا، يشغلون مساكن في أهم شوارع وسط المدينة من التوفيقية شمالاً إلى هدى شعراوي جنوباً، ومن عماد الدين ومحمد فريد شرقاً إلى شارع شامبليون غرباً، كما يشغلون مساحات ثابتة في كل محلات وسط المدينة من جروبي للأمريكين إلى بامبو وزينة والبيروكيه وغيرها، أو بالعمل في محلات شيكوريل وشملا وصيدناوي وداوود عدس وغيرها...

لم يكن يهمه من أمورهم سوى قربهم منه وعلاقاتهم الطيبة به، وتركهم له فرصة تحديد درجة ونوع العلاقة بكل منهم.. بعد أيام عادت أوديل إلى الإسكندرية

ولم يكن يعرف وسيلة للالتقاء بها سوى تواجدها بصفة يومية أو شبه يومية في حلواني أتينيوس في ميدان الرمل..

ورغم انشغاله بعمله الصحفي؛ إلا أنه حافظ على التواصل مع مجموعة الأمريكين وتعمد المرور على التراس الذي تجلس فيه المجموعة كلما تواجد في وسط المدينة، ووطد علاقته بهم جميعاً؛ نساءً ورجالاً..

وفي أمسية من أمسيات فصل الخريف مر بالمجموعة للتحية.. دعوه للجلوس إلى مائدتهم، وكالعادة لم تشمل الدعوة تقديم مشروب، فقط تبادل التحية والسؤال عن الأخبار الشخصية، وسأل مازن عن أوديل، وعما إذا كانت قد حضرت إلى القاهرة. وحين أجيب بالنفي، سأل عن رقم التليفون الذي يمكنه الاتصال بها من خلاله وأجابته ليديا بينما قدمت له إندكس صغير لأرقام التليفونات:

- عندك نمرة بتاع محل أتينيوس، ونمرة تاني بتاع محل ديليس، ممكن تلاقيها هنا أو هنا، وإذا كان ضروري خالص في نمرة بتاع أوتيل سيسل ممكن تكون في شغل، بس هي مش بتحب نطلبها كتير في شغل بتاعها..

نقل الأرقام في الإندكس الخاص به، وبقي لبعض الوقت، انشغل فيه بمداعبة مدام ماركو، وتوطيد معرفته بعوض وإدريس الجرسونين المكلفين بخدمة التراس تدشيناً لاعتماده زبوناً دائماً، وتمهيداً للإقرار بوضعه كصاحب ترابيزة، وهي مكانة تماثل "أستاذ كرسي" في الجامعة، أو "شيخ عامود" في الجوامع التعليمية مثل الأزهر، حيث لاحظ أن الجرسون حين يلحظ اتجاه زبون عابر نحو ترابيزة يفضل أحد الزبائن الدائمين الجلوس إليها يتظاهر بتنظيفها، ثم يتعمد دفع كوب به بقايا مشروب من الزبون الأسبق له، فتتسخ الترابيزة حيث يتركها الجرسون ويتجه إلى ترابيزة مجاورة وينظفها بهمة بينما يشير إلى الزبون لاستعمالها ويسحب أحد المقاعد إلى الخلف، وحيث لا فرق لدى الزبون بين هذه وتلك، فهو يستعمل

الترابيزة التي وجهه إليها الجرسون تاركاً الأخرى، حيث يجدها الزبون الدائم خالية وقتما يصل..

أعجبته الفكرة، وأحس أنها تضيف إليه مكانة في المكان فأجزل البقشيش للجرسونات حتى يعتادوا كرمه ويكرسون جهدهم لخدمته..

(٣)

كان الخريف هو الموسم المحبب لدى مازن في السفر إلى الإسكندرية.. كان يضيق بزحام الصيف، وكان يرتعد من برد الشتاء وخاصة في توقيتات النوات، كما أن الربيع كان يرهق تنفسه في معظم أيامه، وخاصة حين تزداد حمولة رياح الخماسين من الأتربة.. لكن الخريف كان يمثل مناخاً مثالياً برياحه الباردة النقية، وحتى جوه الضبابي المعتم قليلاً؛ كان يسعده كثيراً، ويدفع بشحنات من الإرتياح لنفسه، وكان شاطئ البحر أحب الأماكن التي تجسد له روح الخريف..

قرر مازن السفر إلى الإسكندرية في أجازة لعدة أيام يلتقي خلالها بأوديل التي أحس رغبة في لقائها قاوم في نفسه تسميتها شوقاً، كما لم تكن حباً بطبيعة الحال.. كانت لوناً جديداً عليه من العلاقة، وبصرف النظر عن اسمها، فقد دفعته دفعاً لكي يحزم حقيبته ويندس في القطار المتجه إلى الإسكندرية.. وصل القطار إلى محطة سيدي جابر، فحمل حقيبته وغادر القطار حيث سار على الرصيف في طريقه لمغادرة المحطة، وفكر في مقصده. إلى أين يتجه؟ إلى فندق؟ بطبيعة الحال سينزل في فندق، ولكن هل هناك فندق يسمح بمرافقة أوديل له في غرفة واحدة؟ قد تكون هي الأدرى بذلك، ولكن هل يلتقي بها قبل أن يسكن الفندق وبيده الحقيبة؟ وأين هي وكيف يلتقي بها؟.. وهداه تفكيره إلى أن يترك الحقيبة في أمانات المحطة، ويمضي إلى حيث يبحث عن أوديل..

وبالفعل، اتجه إلى أتينيوس، وتفحص الجالسين داخل المحل وخارجه فلم يجدها.. ثم مضى عبْر الميدان إلى ديليس، وتكرر الشيء نفسه.. ثم تذكر أن معه

رقم تليفون الفندق، وضحك من نفسه أن يفكر في التليفون والفندق على بعد خطوات منه، بينما لم يفكر في الاتصال من القاهرة للتنسيق. عَبَرَ الميدان حيث دخل إلى الفندق العتيق واتجه إلى موظف الاستقبال حيث حياه ثم سأله عن وجود مدام أوديل، فاتجه الموظف إلى زميله المجاور له خلف الكاونتر يسأله عن وجود أوديل (الفام دي شامبر) فأجابه بوجودها، ورفع سماعة التليفون وطلب خدمة الغرف (Room Service) حيث طلب توصيله بالسيدة/ أوديل، وحين ردت، سلم السماعة لمازن حيث سلم عليها وسألها عن موعد انتهائها من وردية العمل وأجابته أنها ستكون خالية بعد نصف ساعة، ويمكنه انتظارها في اللوبي بالفندق.

جلس وطلب مشروباً وتصفح جريدة كانت بيده حتى مضت الدقائق الثلاثين وأهلت عليه أوديل فسلمت بحرارة، ثم اصطحبته فعبرا الميدان، واستقرا على مائدة على رصيف محل أتينيوس على الكورنيش المواجه للبحر الذي يعشقه.

امتد الحديث بينهما ليغطي المدة التي لم يلتقيا خلالها، وكيف قضاها كل منهما.. ونظر في ساعته ليفاجأ بتخطيها الخامسة فشهق شهقة المفاجأ بما لم يتوقع وقال لها:

- ياه دا الكلام أخدنا مادريناش بالوقت، لا فكرنا في الغدا، ولا ف شنطتي اللي ف أمانات محطة سيدي جابر، ولا حابات فين... ولا... ولا. تعالى بقي بسرعة ناكل لقمة هنا في مصطفى درويش، ونخطط للأربع أيام اللي حاقعدهم في إسكندرية.

وأمنت على اقتراحه مع تعديل بسيط؛

- لو ممكن يكونوا خمسة يوم علشان أرجع معاك مصر أقعد ثلاثة يوم هناك وبعد ما ناكل، نروح محطة نجيب الشنطة، وممكن نحجز أوضة سوا سوا أربعة ليلة في بانسيون مدام حريري في عمارة جنبنا..

واستطردت معتذرة:

– معلش مازن مش ممكن آخدك معايا شقة بتاعتي علشان جيران، وأصحاب البيت عينيهم مفتوحة كتير وعارفين أنا مافيش جوز معايا وكمان ممنوع في أوتيل سيسيل واحد راجل وكمان واحدة ست يكونوا في أوضة سوا سوا من غير بطاقة ويكون في جواز، كمان أنا باشتغل في الأوتيل وممنوع.. ممنوع أكون مع واحد راجل في أوضة واحدة..

استمع إلى مرافعتها الطويلة، واعتذاراتها المتكررة ثم ضحك لأنه لم ير مبررا لا للشرح ولا للاعتذار فهو يتفهم ذلك كله ولو عرضت تنفيذ شيء منه لاعتذر هو..

تناولا غذاءهما، واستقلا عربة تاكسي إلى محطة سيدي جابر، وانتظرته في التاكسي حتى تسلم حقيبته ثم عادا معاً إلى شارع قصير للغاية يربط بين الكورنيش ومحطة الرمل حيث دخلا في إحدى العمارتين اللتين يقتصر عليهما الشارع؛ عمارة عتيقة ولكنها فخمة الطراز كل شيء فيها متقن الصنعة. الواجهة والمدخل، والمصعد الحديدي المكشوف الذي أوصلهما إلى الطابق الثالث، وفي مواجهة باب المصعد، كان باب خشبي مرتفع وبجواره لافتة صغيرة مكتوب عليه بالحروف اللاتينية: بنسيون حريري. ضغطت أوديل زر الجرس برفق، وبعد ذلك بلحظة فتح الباب ووراءه سيدة تشي ملامحها عن أصولها اليونانية، وحين وقع بصرها على أوديل صاحت وتدفقت عدة عبارات باللغة الفرنسية وضح منها الترحيب والعتاب على طول انقطاع وغياب، وردت أوديل بنفس الطريقة، وفي نهاية حديثها أشارت إلى مازن وذكرت اسمه مقترناً ببعض الإيضاحات التي أمنت عليها مدام حريري، وأنهت كلامها بما فهمه مازن:

– داكور. بون اريفي.. أهلا وسهلا.. حاتكون مبسوط عندنا كتير مسيو مازن..

ثم قادتهما عبر الاستقبال (الصالة) إلى غرفة إلى اليمين ففتحتها ودخلت، ودخلا خلفها ليجدا غرفة، بدت مألوفة لأوديل وإن لم تفصح هي ولا مدام حريري

عما يشير إلى ذلك.. ثم فتحت الزجاج والشيش عن بلكونة فوق المدخل بالشارع الفرعي، لكنها ترى الكورنيش والبحر بفاصل أمتار ووجهت الكلام بالعربية لمازن:

- أي خدمة مازن بيه؟

شكرها مازن وغادرت الغرفة وأغلقت بابها من الخارج ليجد نفسه بتلقائية ودون حاجة لمقدمات يعانق أوديل في شوق شديد أحس بمثله من ضغط يديها على ظهره وتمريغ خديها أمام شفتيه.. واستمرا دقائقاً يسبران غور الشوق والرغبة، حتى سمعا طرقات رقيقة على الباب، ففتحت أوديل، ومالت بنصفها العلوي إلى خارج الغرفة يساراً، وسمعها تقول بالفرنسية:

- بالطبع.. دقيقة واحدة..

ثم عادت إلى داخل الغرفة، وطلبت من مازن بطاقته لتسجيل بياناتها وأخذتها وخرجت لدقائق عادت بعدها وأعادت البطاقة لمازن وسألته:

- تحب ننزل شوية نمشي على كورنيش، ولا نستريح شوية وننزل نسهر؟

وأجابها بأنه يفضل المشي ساعة على الكورنيش وتنسم هواء الخريف الذي يعشقه ليعودا إلى البنسيون والنوم مبكراً..

قضيا ليلتهما بأمتع ما يجمع بين رجل وامرأة، ورغم توقعه لعلاقة أو علاقات تجمعها بغيره، إلا أنه أحس خصوصية شديدة، وتجاوباً لا يتمنى أكثر منه.. ثم مضت ثلاثة ليال تالية مشبعة في كل شيء؛ حياة غنية بكل ألوان البهجة والمتعة، وخاصة في يوم الراحة الأسبوعية لها حيث قضياه في المنتزه، بينما قضى أوقاته في الأيام الأخرى وخلال فترات عملها في سياحة بالمعمورة ومتحف الأحياء المائية وقلعة قايتباي، وعامود السواري والمسرح الروماني، في حين قضيا الأمسيات والسهرات في الكازينوهات على الكورنيش ومتابعة الأفراح ووقائع الزفة "الإسكندراني" ثم الملاهي الليلية مثل بم بم، وسانت لوتشيا، وفي الليلة الثالثة شاهدا فيلم نزهة في سينما أمير حيث تصادف أن يعشقا بنفس الدرجة جمال وأداء

كيم نوفاك، ووليم هولدين.. وغلف ذلك رومانسية الفراش لتكتمل كل صور الجمال النفسي والعاطفي والحسي. كانا عاشقان تركا كل هموم الدنيا خلف ظهريهما وأمضيا خمسة أيام كعروسين في أحلى شهر عسل..

واستكملا جرعة مخفضة من نفس الكأس في ثلاثة أيام بالقاهرة انشغل خلالها بعمله لساعات طويلة.. وانشغلت برفيقاتها في القاهرة اللاتي قضيا معهن أوقاتاً مشتركة حفظا للود، ودعما للصداقة..

توطدت علاقة مازن بأوديل واعتاد وجودها برفقته إلى درجة أنها حين انتهت أجازتها، وكان عليها العودة إلى الإسكندرية، ذهب معها لتوصيلها إلى القطار، وامتد الحديث بينهما فصعد معها إلى حين تحرك القطار، لكن مازن لم ينه حديثه، بل واصله بعد تحرك القطار، ونبهته أوديل إلى ذلك، فأشار إليها بيده لصرف نظرها عن ذلك وحين نبهته إلى وصول القطار إلى محطة بنها، وأنه يمكنه النزول والعودة إلى القاهرة قال لها في هدوء:

- مش مهم. حاروح معاكي إسكندرية، وارجع..

وهكذا مضت علاقتهما تتوثق وتتقارب لقاءاتهما حتى أصبحت أسبوعية؛ مرة في القاهرة، ومرة في الإسكندرية..

وفي أسبوع الأعياد المسيحية دعته أوديل لقضائه بالإسكندرية ليشهد الكريسماس، وحتى رأس السنة.. ولبى الدعوة، واستقبلتهما مدام حريري بترحاب، وأعدت لهما مائدة عشاء وشراب، فوجئ بأنه زجاجة جين، وأخرى لايم جوس، وطبق صغير به ترنشات من الليمون فأسعدته المفاجأة وصاح في مدام حريري:

- دا أنا بقيت مشهور وانترناسيونال، مدام حريري عرفت أنا باحب إيه.. ربنا يخليكي يا مدام حريري.. ووجد نفسه يقترب منها ويفتح ذراعيه لها، وسرعان ما تقدمت إلى حضنه، وطبعت على خده قبلة حانية..

اعتادا هذه الحياة.. وحكمتهما هذه العلاقة بدرجة أحسا معها أنه لا فكاك منها ولا مهرب لأيهما من الآخر، وطلب مازن من أوديل الإقامة معه في القاهرة بصفة دائمة.. واعتذرت عن إمكانية تنفيذ ذلك لعملها في فندق بالإسكندرية وليس له فرع في القاهرة وطلبت منه أن يحاول هو العيش معها في الإسكندرية، ففكر قليلاً ثم أجابها:

- والله أنا أتمنى يا أوديل، وحا اعمل محاولة إني أمسك مكتب الجورنال في إسكندرية ولو مدة؛ سنة ولا اثنين لحد ما نرتب الأمور.

استثارتها الفكرة وشجعته عليها في لهفة:

- ياريت مازن.. بسرعة شوف دي ممكن؟

وأجابها مازن بتأكيد عزمه على ذلك:

- من بكرة يا أوديل حا أحاول..

(٤)

ومضت الأيام لينصرف الشتاء، وتتفتح زهور الربيع، وقبل عيده بأيام يلتقي مازن بصديقه الحميم فؤاد في سهرة امتدت حتى مطلع الفجر تبادلا فيها الأخبار فألقى مازن بتفاصيل حياته مع أوديل من يوم التقاها مع فؤاد حتى انتقاله للحياة معها في بنسيون حريري في الإسكندرية.. وأما فؤاد فقد تحدث بتفاصيل أقل:

- أما أنا يا مازن فأخباري للأسف عليها حظر نشر؛ فعلاقاتي النسائية مقتصرة على خطيبتي اللي حاتوصلك الأسبوع الجاي دعوة لحضور كتب الكتاب والفرح بتاعنا في الأسبوع اللي بعده، وطبعاً كل التفاصيل خاصة جداً.. وأقصى ما تطمع فيه أني اسمح لك تجيب معاك زقزوقة بتاعتك وترطن زي ما ترطن بقى، الدنيا حاتبقى دوشة وماحدش حايسمعها..

واستطرد فؤاد:

- أما أخبار الشغل فباختصار برضه، ياريتني زيك أقدر أطلب نقلي إسكندرية ولا بورسعيد، لكن يا عيني علي، الوحدة اللي أنا فيها استلمت أمر إنذاري بالتحرك لليمن، وإن استمرت الأمور على ما هي عليه، معنى كده إننا بعد شهر.. شهر ونص حانكون متحركين، يعني بعد فرحي بشهر. شفت الهنا اللي أنا فيه؟ مش برضه صح إن ناس هايصة.. وناس لايصة؟

ضحك مازن وحمله مسئولية اختياره:

- مش انت اللي صممت على الكلية الحربية، واختبارات طبية، ولياقة، وقفزة ثقة، وكشف هيئة.. والنهاية إيه؟ عيشة في الصحرا، وأجازات بالقطارة والدور والباقي ع الحرب والغربة.. يا عم كانت مالها كلية الهندسة ولا حتى الآداب؟ مش كان زمانك موظف سوا مهندس ولا مدرس، ولا صحفي زي حالاتي؟ آه هي صحيح مهنة البحث عن المتاعب، بس متاعب عن متاعب تفرق.. وبعدين كفاية إنك تبقى ف بلاط صاحبة الجلالة.. و

استوقفه فؤاد بطريقة تذكره بخدمته الجليلة له بسبب وظيفته:

- يعني لو ماكنتش أنا ضابط كنت انت عرفت أوديل وبلدياتها؟!

ضحكا وتنقلا على غصون الحديث الشيق حتى أذن الفجر، فأذن لهما بالافتراق إلى أن يلتقيا في زفاف فؤاد.. وعاد مازن إلى الإسكندرية ينهل من بحر العسل ويمضي مع أوديل إلى نقطة اللاعودة...

مضى الأسبوعان، وحضر مازن حفل زفاف فؤاد وبرفقته أوديل في ثوب قضت عدة ساعات في محل فيرونيك لكي تنتقيه من بين عشرات بل مئات الفساتين وأبرز الديكولتيه المتسع والشابونيز المقترب إلى فتحة الصدر وارتفاع الفستان إلى ما فوق الركبة، كل المفاتن التي اجتذبت الأضواء والأنظار، وحين اتجها إلى الكوشة لتهنئة العروسين، همس فؤاد في أذنه:

- الله يخرب بيتك، خد الست اللي معاك دي وامشي ماتبوظليش الفرح.. الضيوف بيبصوا عليها وسايبين العروسة..

وضحكوا.. ومضت الليلة.. في فرح ومرح ورقص وطرب.. وعاد مازن وأوديل إلى الإسكندرية فلم يعودا يطيقا البعد عن بنسيون حريري أكثر من ساعات.. والغريب أن مدام حريري أصبحت هي الأخرى لا تطيق بعدهما إما مودة ومحبة.. وإما مصلحة ومنفعة، وإما هي جميعاً.

ذات مساء في بدايات شهر مايو، فاجأت أوديل مازن باقتراح:

- مازن. أنا شايفة إنك بتدفع فلوس كتير علشان نعيش في بنسيون وانت عندك شقة بتاعة أهلك، وشقة بتاعتك في مصر، أنا كمان عندي شقة مقفولة في إسكندرية. مش دي حرام؟

استغرب مازن من إثارتها الموضوع رغم علمها بأن لا حل أمامهما سوى ذلك، كما فرح لإحساسه بأنها تحاول توفير نقوده، ومعنى ذلك أن حرصها عليه غدا أكثر وأوضح فرد على سؤالها بسؤال:

- طيب إيه اللي ف إيدينا نعمله؟ دا إنتي كمان عندك فندق طويل عريض بتشتغلي فيه؟

أجابت أوديل:

- أنا بره بيت بتاعي بقالي أكتر من ست شهور، ممكن نرجع البيت سوا كإن احنا متجوزين.. ونعيش في شقة بتاعي.

لقي اقتراحها ارتياحاً شديداً لدى مازن، لكنه تظاهر بالتحفظ:

- انت متأكدة إن مافيش حد ممكن يشك، أو يتصرف كدا ولا كدا؟
- دي مظبوط. مافيش مشكلة. ياللا.. ياللا نوضب شنطة ونروح.

في البنسيون، عرفت مدام حريري بما قرراه، فأبدت حسرة وجزعاً ولم يكن لها إلا أن تستسلم لقرارهما، وعلى عجل، أعدت حفل عشاء على شرفهما للوداع الذي

طلبت منهما ألا يكون أبدياً، وألا يحرمانها من زيارة كلما مرا بالقرب منها. وسألتهما سؤالاً له جواب واحد، ومعلوم سلفاً:

- انتوا ممكن تنسوا بنسيون مدام حريري؟

وأجابا في وقت واحد بنفس الجواب وإن اختلفت اللكنة:

- مش ممكن طبعاً ننسى الأيام الحلوة والليالي الجميلة واحنا من انهارده مش حانقول مدام حريري. حانقول ماما حريري.

قضيا وقتاً طيباً، وفي منتصف الليل انتقلا إلى شقة أوديل في منطقة كامب شيزار حيث عاشا كزوجين أمام الناس، وعاشقين محبين لا أكثر فيما بينهما.. حتى إذا ما كانت ليلة من ليالي شهر يونيو، شديدة الحرارة، قاسية القيظ، أن فتح مازن النوافذ واحتفظ على جسمه بنصف ملابسه الداخلية بينما خلع باقي ملابسه، وسلط هواء مروحتين على جسده العاري إلى أن غلبه النوم، ومع هواء الفجر البارد، صحا مازن على سعلة شديدة وانتفاضة سرت من بعدها رعشة في جسده، قام على أثرها فأوقف تشغيل المراوح.. وأغلق النوافذ وارتدى فانلة داخلية مع جاكتة البيجاما.. وحاول استئناف النوم دون جدوى، فقد تكررت الرعشة، وتصاعدت درجة الحرارة.. وانتابه سعال متوال، وتفاقمت حالته بسرعة ملفتة..

أفاقت أوديل على انتفاضات مازن المتكررة، وانتفاض الفراش معه بعنف وعلى صوت الكحة المتصلة، ووضعت يدها على جبهة مازن فلم تتحمل كفها لحظات لشدة ارتفاع الحرارة. قامت تقلب في أجزخانتها بحثاً عن مهدئات وخافضات حرارة ومضاد حيوي وأتت بمجموعة من الأقراص وكوب مياه ثم رفعت رأسه إلى أن استند إلى صدرها وساعدته حتى تناول الأقراص، ثم غادرت الحجرة لحظات وعادت بكوب من عصير الليمون الدافئ.. ثم استعدت للخروج واعتذرت لمازن قائلة:

– ما أِلشْ مازن. أنا لازم أمسك شغل دلوقت، وممكن آجي قبل المواعيد ونروح لدكتور.

– شكراً أوديل ماتشغليش بالك، خليكي في شغلك وان شاء الله حا أكون كويس..

ومضت أوديل إلى عملها، وبقي مازن يواجه آلاماً متصاعدة، وأحس رغبة مفاجئة في القيء، فأمسك نفسه لحظات خطا فيها بسرعة عرضته للإرتطام بباب الحجرة، ثم باب الحمام الذي غلبه القيء عنده.. ومضت الدقائق بطيئة متثاقلة بين السعال، والقيء مع صداع كاد يفجر رأسه، ومع إحساسه بالحرج من اتساخ أرضية الشقة في أكثر من موضع نتيجة للقيء المفاجئ والمتكرر، اضطر مع كل ألمه إلى استعمال أدوات النظافة والمطهرات في إزالة الآثار حتى لا يسبب لأوديل درجة من الشعور بالاشمئزاز والتقزز. وفي شبه إغماءة سرح مازن بحثاً عن إجابة لأكثر من سؤال:

- لو كانت أوديل زوجته هل كانت مشاركتها له تقتصر على جوانب المتعة؟
- هل كانت الأمور تسير بشكل طبيعي في مثل هذه الحالة فيعوده الطبيب في المنزل، وقد يسأل عنه الجيران، ويقدمون المشورة بشأن علاج حالته؟
- هل كان الاتصال بوالدته وشقيقه منطقياً للحضور والاطمئنان عليه؟

أحس بعزلة غريبة.. وحين عادت أوديل؛ كانت حالته قد تفاقمت وتدهورت بسرعة تنبئ عن خطر حقيقي، همد جسده وفقد القدرة على الحركة وارتفعت درجة حرارته حتى جاوزت الأربعين درجة، وغارت عيناه وثقلت جفونه، وتضاعف ألم الصداع واستمر القيء حتى شارف على الجفاف، ورأى في عيني أوديل خوفاً خلاف الخوف عليه، قرأ في عينيها خوفاً من احتمال ورد في نفس اللحظة على مخيلته: ماذا لو مات؟ كيف يكون التصرف؟ ورأى في خوفها منطقاً مخالفاً لخوفه هو، فمن ناحيتها؛ كيف تتصرف في جثمان رجل لا يعرف عنه أحد – ولا هي –

أكثر من اسم وعمل ورقم تليفون؟ بم تجيب حين تُسأل: من هذا؟ وما سبب وجوده في شقتك؟ وما هي أسباب وفاته؟ هل هناك شبهة جنائية؟!

أما هو فأحس خجلاً شديداً من توقعه لموقف أسرته حين يتلقون اتصالاً يفيدهم بأنه وجد ميتاً في شقة سيدة نصف أجنبية بالإسكندرية.

تماسك مازن وحاول الوقوف رغم عدم توازنه، وقبل أن تسأله أوديل عما هو فاعل، طلب منها أن تساعده على ارتداء ملابسه، وسألته باستغراب:

- ليه عايز تلبس هدوم خروج؟
- جيبي لي تاكسي تحت البيت يوديني مصر.

وتساءلت باستنكار قرأ هو معه ارتياحاً نسبياً:

- وانت كده تعبان؟
- معلش أنا لازم أكون مع العيلة.
- طيب استنى أنا آجي معاك. مش لازم تكون لوحدك.
- لا.. لا. اعملي اللي بقولك عليه بسرعة.

(٥)

بمجرد أن فتحت أوديل باب التاكسي وأخفضت رأس مازن، ودفعته برفق إلى داخل التاكسي، ودفع هو بباقي جسمه فهوى به على المقعد المجاور للسائق وأغلق الباب وأشار لأوديل بكفه مودعاً، وقبل أن يتحرك السائق سأله عن وجود قلم وورقة، قدمها له السائق فكتب له عنوانه في القاهرة واسم أخيه الأصغر ورقم تليفونه في المنزل، وأعادهما للسائق، وقال له:

- لو أغمي علي ولا حاجة ماتخفش، أنا عندي دور برد شديد، وصلني للعنوان اللي في الورقة، وكتبت لك رقم التليفون واسم أخويا..

وانطلق السائق محملاً بدرجة من القلق دفعته للقيادة بسرعة عالية اختزالا للوقت. ومن الحين للحين كان يختلس نظرة يرى من خلالها أن مازن قد أغلق عينيه، فكان يحاول محادثته في أي شأن للتثبت من استمراره حياً.

وصلا إلى المنزل بالقاهرة. أجزل للسائق العطاء قبل أن ينصرف ويجر رجليه في عناء إلى أن وصل إلى باب المسكن، وثبت يده على جرس الباب، وهرول شقيقه شوقي إلى الباب وفتح فرأى شقيقه في حالة استشعر معها – وفور رؤيته – خطراً، فاحتضنه ثم وضع يد مازن على كتفه، بينما لف هو يده حول وسطه، واتجه به فورا إلى الفراش.. وهرعت والدته إلى المكان لكي يصل بها القلق والدهشة إلى حالة من الفزع لاحظها مازن فطمأنها إلى أنه مجرد "دور برد" بسيط..

حبست الأم والشقيق سؤالا واجباً:

– أين كنت؟ وما الذي فعل بك ذلك؟

انطلقت الأم إلى الثلاجة، فأخرجت دجاجة مجمدة أسقطتها في وعاء مليء بالماء استعجالاً لإزالة التجمد، وسرعان ما أعدت له طبقاً من الشوربة وصدر الدجاجة كأساس لوجبة عاجلة، وجلس شقيقه إلى جواره يطمئن عليه بالسؤال ويضع كفه على جبهته من الحين للحين.. أحس مازن بأمان وطمأنينة سرت في أوصاله التي تماسكت بعد تفككها، ومن الغريب – ورغم معاناة السفر مع آلام المرض فقد أحس ببداية لتحسن لم يكن ينتظره بهذه السرعة.. والغريب أن هاجس الموت راوده فلم يشعر بغير رهبته، فهو في بيته ، وعلى سريره، وسط أسرته وبالتالي فالأمر مقبول اجتماعياً وأدبياً.. ارتاح كثيراً بالعودة إلى الفطرة.. اتصل بالجريدة للإبلاغ عن مرضه ووجوده بالقاهرة.. ومضى يومان تحسنت خلالهما صحته، وتماثل للشفاء.. وأحس شوقاً للقاء صديقه الحميم: فؤاد؛ رفيق الصبا، والشباب، وجاره الذي لا يفصل بيتيهما سوى منزل واحد فطلب من شقيقه أن

يتصل به ويطلب ممن يرد عليه رقم تليفون فؤاد بعد الزواج، إذا كان لديه تليفون في مسكنه الجديد، أو عنوان هذا المسكن..

حقق شقيقه الاتصال بفؤاد الذي فرح أيما فرح بعودة مازن في ذلك التوقيت بالذات، وأخبره أنه سيمر عليه بعد ظهر نفس اليوم.. والتقى الصديقان بعناق مطول وعاطفة فائقة كان كل منهما يعرف سببها في نفسه، ويندهش لفيضها في نفس أخيه، وانفردا بالحديث لكي يتلقى كل منهما تفسير ذلك؛ قص مازن لفؤاد حكايته مع أوديل ثم ما تعرض له من (وعكة) لا تزيد عن ذلك، أدت به إلى الشعور بخطأ وضعه الفاضح مهما بدا من ستره، وأن فكرة احتمال الموت التي طرأت على فكره أيقظته من غفلة عظيمة، فعاد إلى بيته، وإلى فطرته..

وحكى فؤاد ما جد في حياته من سعادة زوجية قصيرة مضت عليها أسابيع ثم تلقى وحدته أمر التحرك للقتال في اليمن، وأن موعد التحرك تحدد بعد ثمانية وأربعين ساعة من الوقت الذي جمعهما، وكأن هاجس الموت قد ضاعف تقاربهما الذي صنعته الحياة..

بعد نصف ساعة اعتذر فؤاد لاضطراره للانصراف حيث يحضر زوجته إلى بيت الأسرة لكي يسلم على الجميع ويودعهم قبل أن يعود إلى وحدته التي لا يعرف هل تمكنه الظروف من تركها ساعة أو ساعات من جديد لوداع أسرته في آخر لحظة. تكرر العناق، وربما ترقرقت في العيون عبرة أخفاها كل منهما عن الآخر ومضى فؤاد..

استأنف مازن حياته الطبيعية بعد أن وافقت إدارة الجريدة على عودته للعمل بالقاهرة.. وحين فكر في المرور على "شلة" الأمريكين خلال تواجده بوسط المدينة تردد مرتين، وأحس عزوفا عن التواصل.. وفي المرة الثالثة دفعه قراره بالتصرف في شقة اللقاء الأول لكي يدخل فيستقبله الجميع بالترحاب، وتساءل بعضهن عن أخبار أوديل.. وأخبار الإسكندرية مدينة الذكريات الرائعة.. ففهم أن خبرا عما

تعرض له وعن تركه الإسكندرية لم يصلهن بعد.. وسأل عن بيكيلو السمسار وقيل له أنه انصرف لإنهاء أمر ما، وقد يصل في أي لحظة.

قبل أن ينهي مازن شرب فنجان الـ كابتشينو كان بيكيلو قد وصل، وحين لمح مازن صاح بترحاب:

- إيه مسيو مازن. بكاش كبير.. فين يا راجل؟ قلت أسبوع أو اثنين تتصرف في شقة بتاعك علشان نشوف لك شقة تاني؟

وأجابه مازن:

- أهو دا الموضوع أنا ماعرفتش اتصرف في الشقة بتاعي، علشان أنا كنت علطول في إسكندرية، وجاي انهارده علشان أقول لك شوف زبون ياخدها بالعفش، وأنا حاراضي صاحب العمارة علشان ينقل العقد.
- طيب. أنا أمسك مفتاح انهارده، يوم التلات يكون كله تمام التمام.
- انت واثق أوي إن الزباين واقفين طوابير؟
- لا. لو مفيش زبون، أنا آخد شقة عشاني أنا. بعدين اتصرف فيها.
- ماشي الكلام، وادي المفتاح، وتعالى أفرجك ع الشقة، ومش حا اقولك أنا عايز كام. انت كلك نظر. واللي حاتقول عليه حا أوافق إن شاء الله.

واستأذنا من الجميع حيث تفقد بيكيلو الشقة بعين الخبير وبدقة فاحصة وجمع مازن بعض لوازمه الشخصية في حقيبته.. وأكد على بيكيلو أن يتصل به في رقم تليفونه الموضح على الكارت الذي سبق إعطاءه له، وأخرج بيكيلو مجموعة من الكروت بحث بينها عن كارت مازن حتى وجده في إجراء معتاد طبقا لقواعد المهنة...

مضت ثلاثة أيام، واتصل بيكيلو بمازن وطلب مقابلته.. وحين التقيا عرض عليه ما توصل إليه، فانتقلا إلى صاحب العقار حيث سلمه صورة العقد بعد أن شرح له المطلوب وتنازل له عن المبلغ الذي سبق دفعه إضافة لقيمة الإيجار..

وفي وقت قصير، تم إنهاء كل شيء وتلقى مازن مبلغاً من بيكيلو لم يرهق نفسه في عده وتصافحا قبل أن يفترقا..

في أول فرصة واتتها، حضرت أوديل إلى القاهرة فاتجهت مباشرة إلى الشقة لكي تترك حقيبتها وتستريح لبعض الوقت، قبل أن تلتقي بالأصدقاء في الأمريكين، وضعت مفتاح الباب في الكالون فتعثر دورانه، حاولت مرة ثم أخرى دون جدوى، فأيقنت أن الكالون قد تم تغييره.. مضت إلى الأمريكين. رحب بها الموجودون من الشلة وجلست، وبعد أن تناولت رشفة من عصير الليمون الذي قدمته لها مادلين، صديقة قديمة كانت تعيش في مصر الجديدة قبل أن تلحق بالرفاق في وسط المدينة، سألت مدام ماركو عن مازن، وآخر مرة رأته، فأخبرتها، أنه التقى ببيكيلو وسلمه الشقة للتصرف فيها، وقد فعل. صدمها الخبر، لكنها تماسكت وسألت عن بيكيلو وقبل الإجابة فوجئت به من ورائها يهتف بسرعة:

- بيكيلو علطول موجود أوديل.

سألته عن رقم تليفون مازن، وحين كتبه لها خرجت إلى الممر الدائري المحيط بالأمريكين الموصل بين شارعي ٢٦ يوليو، وطلعت حرب، ومن أقرب كشك مجاور للباب اتصلت بمازن ورد شوقي شقيقه فسألته:

- من فضلك مازن موجود؟
- مين يا افندم.
- أنا أوديل. ممكن أكلم مازن؟

بسرعة استنتج شوقي التفاصيل فأعطى نفسه فرصة لمراجعة مازن ورد عليها:

- هو في الشغل أنا حا أحاول اتصل بيه، وأخليه يتصل بيكي لو عارف نمرة تليفونك.
- لا مفيش نمرة تليفون. لكن ياريت ييجي لو ممكن. هو عارف مكان.

وانتهت المكالمة ليتصل شوقي بشقيقه مازن ويبلغه بما كان. انتقل مازن بسرعة إلى الأمريكين، استقبلته أوديل بالعناق والتقبيل، وبادلها ذلك بفتور، وبدأ الحديث بينهما في عتاب، لعدم عودته إلى الإسكندرية، ثم تصرفه في الشقة دون أن يبلغها مما كان ممكنا أن يتسبب لها في حرج شديد، وحاول تفسير الأمر.. وبدأ الهمس يعلو.. وبدأت النبرة تحتد، وجذب الحديث انتباه المجموعة، وتدخل بيكيلو بدبلوماسية هادئة، فأخرج سلسلة مفاتيح انتزع منها أحدها، وقدمه لمازن ناصحا:

- مازن. الشقة لسه تبع أنا، دي المفتاح الجديد، ممكن انت وأوديل تروحوا هناك حايكون الكلام هناك أحسن بكتير.

مدت أوديل يدها بعصبية وأخذت المفتاح قائلة:

- مرسي بيكيلو... ثم اتجهت لمازن قائلة في عصبية تحاول السيطرة عليها:
- يللا يا مازن.

انتقلا إلى الشقة في صمت كأنما ضاع من كلاهما الكلام وما إن دخلا إلى الشقة حتى بادرته بالحديث:

- قول مازن.

وتساءل في اصطناع للبلاهة:

- أقول إيه؟

قالت مستنكرة:

- يا سلام؟ مفيش كلام؟ يعني واحد شهر فات، وسبت شقة من غير ما أعرف ومن غير رجوع إسكندرية، ومفيش كلام، ماشي مازن. انت عايز إيه؟
- شوفي أوديل. انتي عارفة قد إيه أنا باعزك، وسبت بيت العيلة، ونقلت شغلي علشان أكون معاكي علطول. مضبوط؟
- داكور.

- أنا لما رجعت البيت عيان بالشكل اللي انتي شفتيه، والدتي واخواتي صمموا إنهم يتدخلوا ف حياتي، وإني لازم أتجوز، ف....

قاطعته بصرخة مدوية، وحركة متشجنة من يديها التي أطبقت على قميصه:

- لا. مازن. اوعى تقول. أنا سبت حاجات كتير من شانك، وأخذتك تعيش في بيتي من شان تسيبني وقت ما إنت عايز، وأنا زي كلبة؟

حاول تهدئتها، لكنها كانت تزداد تشنجاً، وحين حاول فك كفيها صعب عليه ذلك مما أكد له أنها في حالة غير طبيعية فشلت معها كل المهدئات، وقال لها:

- أنا حاجي إسكندرية وحانقعد سوا لغاية ما أتجوز. مش حانسيب بعضنا كده مرة واحدة.
- يعني أنا ريزيرف بتاعك لغاية جواز. بعدين واحد شلوت؟

فهدأ من روعها شارحا لها ألا أحد يعرف ماذا يدخر القدر، وربما يصعب عليهما معا تنفيذ ذلك، وفي نفس الوقت فكرت هي في أن نصف حل أجدى من لا حل.. وأنها قد تستطيع من خلال تواصلهما، أن تنجح في إشعال الشوق والرغبة وتجديد الارتباط فهدأت بعض الشيء، ولاحظ أن كفيها بعد أن حلهما عن طوقه ما زالا مطبقين، وأن أصابعها ما زالت متشنجة ولم تعد لاستقامتها.. فهدأ من روعها، وتعانقا.. ثم غادروا الشقة، وفي الطريق وعدها بالسفر معها في اليوم التالي إلى الإسكندرية.

في القطار، طلب منها ألا يعودا إلى مسكنها فقد هزه الحنين إلى بنسيون مدام حريري، ووافقت على الفور فربما نجحت الذكريات فيم فشل فيه الحوار.. وصل القطار واستقلا تاكسياً إلى ميدان الرمل، وصعدا إلى حيث البنسيون، ليجدا ورقة مثبتة إلى جوار الباب مكتوب عليها باللغتين العربية والفرنسية:

- البنسيون مغلق لوفاة مدام حريري.

أحسا صدمة شديدة.. وحزنا عميقاً، وردد مازن في نفسه:

ربما هذه رسالة أخرى، ونزلا فدخلا محل أتينيوس، وجلسا إلى منضدة منعزلة، وأشارت هي إلى الجرسون بينما نادته بالاسم:

- بنايوتي.. تعالى من فضلك عايزة فنجان قهوة.

ولاحظ بنايوتي حالتها، فسألها:

- عرفت إيه حصل مع مدام حريري؟

قالت:

- قريت ورقة مكتوب جنب باب البنسيون.

وقال بنايوني في أسى:

- كانت طيبة كتير. وهي بتموت سألت على إسمك وكمان إسم واحد، رامز يمكن.. لا.. لا مش رامز حاجة كده..

وقاطعته أوديل:

- مازن؟

- أيوه هو دي. مازن. مظبوط.

استأذن مازن لدخول دورة المياه.. وخرج من باب المحل فعبر الميدان، ووجد البولمان يتأهب للتحرك إلى القاهرة فجلس على إحدى مقاعده وسرح ببصره عبر النافذة مستعرضاً قصته التي بدأت في قسم الشرطة على غير موعد.. ونهايتها التي كتبها القدر بغير توقع حتى وصل الأتوبيس إلى القاهرة فنهض من مكانه قائلاً بصوت قد يكون مسموعاً:

وداعاً أوديل... وداعاً مدام حريري.

****

صاحب البدلـة

بلا منازع، كنت أكثر الطلبة أناقة ووسامة حين دخلت مدرج المحاضرات بالكلية في أول أيام دراستي بالجامعة. لم لا، وقد خططت لهذا اليوم، وذلك المظهر منذ الأيام الأولى لدراستي الثانوية، وقضيت الأجازة الصيفية السابقة على التحاقي بالجامعة في تنفيذ تفاصيل الخطة بدقة وإحكام دون أن أترك فرصة للصدف أو التلقائية.

كان محور أناقتي هو البدلة السوداء الجديدة، اخترت قماشها من بين مئات "الأثواب" من الصوف الإنجليزي ذو الشهرة العالمية، وأوصيت الترزي – وهو صديق لأبي – ألا يبخل عليها في المصاريف؛ وهي اللوازم لتفصيل البدلة، مثل الفرساليا والأزرار والكُبَشْ والسوست وما إلى ذلك، وخاصة أنه أقسم ألا يتقاضى أتعابًا (مصنعية) حيث يقدمها لي هدية بمناسبة دخول الجامعة..

ومادامت البدلة على هذه الدرجة رفيعة المستوى، فلابد لها من قميص من نسيج القطن المصري الرائع، وتفصيله عند أشهر ترزية القمصان بالحي مع توصية بالاهتمام الشديد بمقاس الياقة وحشوها من الفان هاوزن، وكذلك الأساور التي طلبت أن تكون "دابل مانشيت" بعروتين على الناحيتين لتمكيني من استخدام أزرار معدنية تكمل الصورة.. وكان لابد من شراء حزام من الجلد الطبيعي الأسود وجورب حديث لا يتطلب استخدام أستك خارجي كبقية الجوارب المصنوعة من القطن والتي اعتدنا استعمالها..

وبطبيعة الحال لم أهمل اختيار البانس أو الموكاسان لأنه بلا رباط يكشف – عادة – عن قدر أكبر من الجوارب، أما رباط العنق فلونه "نبيتي" تم انتقاؤه بعناية من أشهر المحلات المتخصصة..

كان زملائي الذين سبقوني إلى دخول الجامعة يروون عن بناتها وأسلوبهم في اختيار رفيقاتهن وقسموا فلسفتهم في هذا المجال إلى أسلوبين على طرفي نقيض تتبع واحدًا منهما، جميلة من الجميلات، فواحدة تختار مجموعتها من بين أمثالها الجميلات لكي تكتمل الباقة فتجذب أنظار الجميع قهراً بلا مهرب، بينما تختار أخرى رفيقاتها من الفقيرات في مقاييس الجمال والأقرب إلى الدمامة لتبدو وسطهن زهرة جميلة ووردة يانعة متفتحة، تجذب الأنظار وتبدو بالقياس بالمحيطات لها أكثر جمالاً، وبضدها تتميز الأشياء.

وفكرت في أسلوب اختيار رفقائي بأي الأسلوبين لإضفاء مزيد من البهاء على بدلتي.. وتحيرت، فقررت تركها للظروف، وفي كل الحالات فسأكون بمثابة ولد الكوتشينة الذي "يُقُشْ" باقي الأوراق..

بعد تجارب، و(بروفات) أمام المرآة، استقر قراري على أسلوبي في الحركة والسكون.. الوقوف، والجلوس، طريقة الكلام ودرجة الصوت، شكل الابتسامة، وحدود الضحكة.. إلخ فلم أترك تصرفاً للصدفة التي يمكن أن تدمر كل ما خططت له.

فتحت الزر الأسفل من ثلاثة أزرار على صف واحد بالجاكيتة، ورفعت طرفها الأيسر، ومن أسفله وضعت يدي اليسرى في جيب البنطلون، وسرت الهويني (كما يمشي الوجي الوحل) أختال على الزمان، ولا أرى من يطاول قامتي، وأحسست أنني تحولت إلى مغناطيس جاذب للانتباه ولا يمكن أن تخطئني عين سواء كانت لزميل أو زميلة.

دخلت إلى المدرج برفقتي شوقي وعباس، زميلان لي في المرحلة الثانوية يرتديان ملابساً عادية كالتي يرتديها كل الآخرين؛ بنطلون وقميص سبق استعالهما، وهكذا الحذاء والحزام وغيرها، كانا يتحركان في خفة استهجنتها ورأيتها غير مناسبة للمقام الرفيع لطالب جامعي، ومع ذلك رأيت ذلك في صالحي فهو يبرز التباين

ويظهر الفرق بيني وبين كل منهما. جلسا في المدرج في بساطة وبلا معاناة، بينما كان على أن أدقق في دخولي إلى مكاني متخطياً الأقدام والسيقان فلا أحتك بأحدها ولا أضر ولا أُضار، وقبل أن أجلس، كان على أن أضبط أوضاع الجاكت بما يتفق مع حالة الجلوس حفاظاً على كيها واستمرار رونقها..

على أية حال، مضى اليوم الأول بلا مفاجآت، فلم ألحظ انتباهاً خاصاً وجهه إلى زميل، أو تعليقاً، أو حتى نظرة ذات معنى من زميلة. ولم أتأثر كثيراً حيث فسرت ذلك بقصور لدى البعض، وانبهار بالجامعة والعلاقات الجديدة لدى البعض الآخر وعدت إلى البيت، فخلعت ملابسي برفق وحذر، وعلقت قطعة.. قطعة بعناية شديدة فقد كان على المحافظة عليها جميعاً لكي استعملها خمسة الأيام التي كان على الانتقال للكلية وتلقي المحاضرات فيها أسبوعياً طبقاً لجدول المحاضرات قبل أن تكون لي فرصة الصيانة للبدلة ورباط العنق وغسيل القميص والجورب، وتلميع الحذاء. كانت المهمة غاية في الصعوبة، لكن النتائج المستهدفة تستحق الجهد والتفكير.

ومضى اليوم الثاني دون أن يسألني أحد عن الطريقة التي كونت بها ذلك الـ "كولكشن" على هذه الدرجة من التناسب والتوافق، ولا سألني أحد عن الأماكن التي اشتريت منها مفردات اللوحة الرائعة التي كونتها، ولا عن ذوقي وإحساسي في توزيع الظل والنور، ولم أتعجل حدوث ذلك فهو قادم.. قادم، فقط تأكد لي غباء الجميع حيث لم يفكر أحدهم في ادخار قرش واحد في كل يوم من فترة الدراسة الثانوية – كما فعلت – ولو فعلوا لأمكن لكل منهم أن يصل إلى ما وصلت، ولكنها العشوائية في التفكير، والنظرة الضيقة والفكر التقاربي، الذي لا يرى أبعد من أسفل قدميه..

وابتسمت ابتسامة رضا حين سرحت للحظة فتخيلت لنفسي مستقبلاً كمستقبل مسيو إبينجل، ذلك الرجل الناجح ذو الشهرة الزائعة، الذي دخل في شبابه إلى

مكتب مدير مؤسسة في فرنسا لطلب وظيفة بمؤسسته وقبل أن يسأله المدير في شيء، انحنى الشاب حيث التقط دبوساً (إبينجل) من الأرض وقدمه للمدير الذي استرعت دقة ملاحظة الشاب انتباهه، وسلمه الوظيفة فوراً وتوقع له مستقبلاً عظيماً وسماه (دبوس) ورعاه وتعهده.. وتقدم الشاب حتى أصبح علماً في عالم رجال الأعمال.

أخذت أنتظر إبينجل بين الزملاء والزميلات يكتشفني حتى مضى الأسبوع الأول دون ظهوره ففسرت ذلك على أنه حقد أسود، وارتحت لهذا التفسير وازداد به ارتفاع قدري في عيني..

كنت أحضر جميع المحاضرات المعلنة بالجدول وأتابع الأساتذة؛ الوحيدون المقتربون من مستوى أناقتي ووسامتي فهم ملتزمون بالملابس الرسمية الكاملة، ولم يكن يصرفني عن المتابعة الدقيقة للمحاضرات سوى حركة تلقائية كنت أؤديها من الحين للحين حين أضع إصبعي الوسطى تحت الإبهام ثم أدفع بالوسطى تنفض غباراً ألاحظه على كتفي أو صدري، وهذا عيب اللون الأسود الشره للغبار والذي يستأثر بمعظم المنتشر منه في الجو المحيط..

وقبل نهاية الأسبوع الأول، وبينما أنا جالس في إحدى المحاضرات، أتابع شرح الأستاذ لخصائص القاعدة القانونية، وأركز انتباهي لما يقول، إذا بعصفورة وقحة، تتخذ من أعلى أحد كشافات الإضاءة بالمدرج عشاً لها، إذا بها تنتقي من بين مساحة المدرج التي تزيد عن خمسمائة متر مربع، كتف جاكتتي لكي تلقي عليه بفضلاتها.

انتبهت إلى ما حدث وانتابتني حالةٌ من الارتباك والحيرة فيم أنا فاعل؛ فهل أمسح الجاكت بمنديلي فينتشر ما أصاب بقعة منه على مساحة أكبر، وتلتصق بالقماش؟ أم أتركها تجف، فلربما تمكنت من إزالتها بسهولة بعد ذلك؟ ولكن متى تجف؟ وهل أبقى طويلاً حتى يتم ذلك؟

رأى حاقد من الزملاء ما حدث فضحك بصوت مرتفع بينما أشار إلى كتفي، وسرت بعده موجة من الضحك ممن يحيطون بي، وحتى من لم ير ما وقع، شارك في الضحك، والتفت الأستاذ إلينا، وتساءل في استنكار ولكن بلا انفعال:

- إيه يا حضرات؟ بتضحكوا على إيه؟ ما تضحكونا معاكم.

ولما كان السؤال عاماً غير موجه لشخص بعينه فلم يجب أحد، وفي إصرار من الأستاذ على معرفة سبب الضحك أعاد السؤال بصيغة فردية، بينما وجهه لي بالتحديد قائلاً:

- قوم انت ياللي لابس بدلة كاملة.

وأشار بإصبعه في اتجاهي.

- الضحك والقرقعة دي علشان إيه؟

ورغم حرجي الشديد فقد رأيتها فرصة لاستثارة الأستاذ لتوبيخ أولئك الشامتين.

- والله يا دكتور في عصفورة عملتها على كتفي فانبسطوا الزملا وضحكوا من قلبهم..

وابتسم الأستاذ وعقد الأمور في مواجهتي بدلاً من حلها فسألني:

- عملت إيه..؟

ولم يكمل سؤاله حيث قهقه هو الآخر، وحين لاحظ أنه قد يبدو مشاركاً للطلبة في السخرية مني، توقف عن الضحك وقال: موجهاً الحديث لي:

- معلش منها لله، عمومًا، الناس في الحالة دي بيقولوا إن اللي بيحصلُّوا كده يبقى حايتكسي، مع إن واضح إنك اتكسيت خلاص. لكن تاني بقى. مين قدك؟

وأشار لي بيده من أعلى إلى أسفل مستمراً في الحديث:

- اتفضل....

جلست وتوقف الضحك، واستمر الأستاذ في شرحه، ولم أتابعه بتركيز حيث شغلني استعادة ما حدث وتحليله، والتفكير في عواقب ما صنعته لي تلك العصفورة الجاهلة رغم سكنها بمدرج للتعليم الجامعي.

ومضت الأيام، ومع مضيها بدأت أشعر بأعباء الحفاظ على نضارة البدلة ومستوى فخامتها، بداية من اضطراري للتحرك بحساب وأنا في استقامة عامود النور لا أنثني إلا لضرورة وبحساب.. لا أجلس قبل أن أخرج منديلي لأمسح به المقعد، وأتحسب لكل خطوة تتعلق بملابسي، فأنا أسلم القميص والجورب لوالدتي فور عودتي من الجامعة يوم الخميس لتغسلها فوراً، وبعد أن يجف القميص أرسله للمكوجي صباح الجمعة وأستحلفه برده إلى قبل مساء نفس اليوم، كما تغسل الجورب مرتين في وسط الأسبوع.. نظام صارم وتوقيتات دقيقة كنت أتحسب لأي خطأ قد يتسبب في حرماني من الذهاب إلى الجامعة..

المهم أنني بدأت أعتاد هذا النمط حتى أحسست في بعض الأحيان أن أحداً قد طلاني بالنشاء ثم مر علي بالمكواة لتجفيفه فأصبحت صلباً لا أنثني، وبدأت أضيق ذرعاً ولكنني كنت أمني نفسي بالنتائج التي تأخر تحققها، لكنها آتية لا محالة...

وفي يوم أكثر حلكة من بدلتي قبله، وبينما أنا عائد من الجامعة بعد انتهاء المحاضرات وبعد أن انتهيت من عبور ميدان الأزهر، اتجهت إلى شارع ضيق بالباطنية، يؤدي في نهايته إلى الزقاق الذي أسكنه مع أسرتي، وفجأة إذا بجردل من أقذر ما استخدمت نساء الحي من مياه، وأكثرها عفونة تنهال دفعة واحدة على رأسي، والأهم من ذلك أنها غطت البدلة.. والقميص، وكل ما يعلو جسمي من ملابس. فقدت النطق والقدرة على النظر إلى أعلا لرؤية من فعل ذلك حتى سمعت صوت عم خليل، والد صديقي عبد الرحمن يعتذر لي في خجل:

– معلش يا سامح يا ابني.. اطلع عشان نصلح المسائل..

ترددت.. وكرر طلبه، ولم يكن أمامي بديل عن الصعود، فليس معقولاً أن أسير على هذه الحال ولو خطوة واحدة، فقد كانت السيدة التي ألقت بالماء، من الكرم بحيث غطت المياه رأسي ووجهي، وحتى الجورب والبانس، وكنت أشعر بتقزز شديد، وتوقع لعجزي عن إزالة تلك الروائح حتى بالخضوع لحمام ساخن يومي على مدى أسبوع..

صعدت واستقبلني الرجل محرجاً متلعثماً:

- أنا مش عارف أقولك إيه يا ابني.. أنا ميت مرة أقول بلاش العادة المنيلة دي وإن كان ولابد يبقى على الأقل نبص كويس نشوف حد معدي. الحمد لله إن جت فيك انت ابننا.. وإن شاء الله كل حاجة حاتبقى تمام.

كظمت غيظي لكنني حدثت نفسي:

- الله يخرب بيتك يا عم خليل، وبيت العشم، والسبهللة اللي انت عايش فيها.. حاجة إيه اللي حاتبقى تمام؟

بينما اختلف حديثي المسموع فقلت له بانكسار وندم:

- ماتشغلش بالك يا عم خليل.

فرد على ما قلته في همة واهتمام:

- ما اشغلش بالي إزاي. أنا حاطلع لك أحسن بنطلون وقميص من عند عبد الرحمن، وحاتدخل تتشطف وتغير وتسلم الهدوم اللي اتوسخت لخالتك أم عبد الله، وكلها ساعتين، حايكون اللي عايز يتغسل، اتغسل واللي عايز ينضف، اتنضف وحاتبعت الهدوم تتكوي وترجع زي ما كانت..

وقلت في نفسي أيضاً:

- والنبي انت طيب يا عم خليل، حاجة إيه اللي حاترجع؟ اللي راح.. راح!

لم يكن أمامي من يد، إلا الاستسلام لما يقول.. ودخلت إلى الحمام فتجردت من ملابسي كاملة، وأخذت أغسل رأسي وجسدي بالماء والصابون، مرة واثنين

وثلاثة بينما سادني شعور أنني لن أصل إلى درجة النظافة التي أرضاها، وارتديت ملابس صديقي عبد الرحمن، قد تكون ضيقة قليلاً، ولكنها تفي بالحاجة على كل حال.. وتركت ملابسي بالحمام غير مطمئن على مصيرها، وخاصة البدلة..

عدت إلى البيت وقصصت ما وقع، ورغم استياء الجميع، إلا أنني لمحت ضحكة حبيسة على ملامحهم تجشموا مشقة كتمانها في محاولة لإظهار التعاطف معي.. وفي اليوم التالي، ذهبت إلى الجامعة مرتدياً ملابس عبد الرحمن محدثاً نفسي:

- أهو تغيير يوم ولا اثنين، وبكرة ولا بعده ألبس طقم تاني من عندي أو اللي عندي – بمعنى أصح – وينتهي الأسبوع ويوم السبت ألبس البدلة، نبقى طقمنا، وماحدش يستنتج إن مافيش غير البدلة.

لم أكن حريصاً على ملابس عبد الرحمن لسببين، فهي ملابس لا تستحق الحرص والعناية ثم إن أمه هبطت بمستوى ملابسي القيمة إلى مستوى ملابس الآخرين.. وأحسست حرية في الحركة، أمشي في هرولة لا أخشى عرقاً نتيجة لها، وأجلس على أي مقعد، وأستند إلى أي جدار، وأجلس في المدرج مركزاً انتباهي مع الأستاذ في الأمام ولا أنظر إلى أعلى في خشية مما قد تفعله الطيور..

وفي طريق عودتي إلى المنزل ركبت الأتوبيس وسط الزحام غير عابئ بضغط المحيطين لي على جسدي وملابسي، وشعرت بأنني في أجازة من البدلة.

في اليوم التالي كانت محاضرة الاقتصاد عن المنفعة، وركزت مع الأستاذ في شرحه للارتباط بين القيمة والمنفعة، وروى لنا قصة الملك ميداس الذي حبسه خصومه مع كنوزه من الذهب والماس حتى تمنى أن يستبدلها جميعاً بكسرة من الخبز يتبلغ بها، لكنه مات جوعاً، وتذكرت البدلة، وقيمتها مقارنة بمنفعتها فابتسمت، وفي هذه اللحظة ألقت يمامة بفضلاتها على صدر قميص عبد الرحمن

الذي ارتديه، وضحك طالبان إلى جواري بلا صوت بينما انفجرت في الضحك، والتفت الأستاذ وسأل عن سبب الضحك فأخبرته. قال:

- وما الذي يضحك في هذا؟

قلت:

- لأنه من بين ألف طالب وطالبة، أتعرض أنا بالذات لهذه العملية مرتان في أسبوع واحد..

وعلق الطالب المجاور لي:

- مش دكتور باسم قال لك حاتتكسي؟

قلت:

- والمرة دي؟

قال:

- حاتتكسي برضه.

قلت:

- لا والنبي كفاية. عبد الرحمن هو اللي حايتكسي..

عدت إلى منزلي، وبعد لحظات دق الباب، فتحت لأجد عبد الرحمن ومعه بدلتي على شماعة، والقميص في كيس من النايلون، فسلمهما لي معتذراً عما حدث دون قصد من والدته، ورددت عليه:

- ولا اعتذار ولا حاجة، دا احنا إخوات، واللي حصل دا كان خير.

ولم يفهم معنى ما قلته، فتساءل:

- خير في إيه بقى يا سامح؟

قلت ساخراً:

- رداً على اللي عملته الست والدتك، في يمامة انهارده عملتها على قميصك، وكل المدرج قالوا لي: حاتتكسي، قلت لهم: عبد الرحمن هو اللي حايتكسي،

وطبعاً ماحدش فهم حاجة.. على كل حال، حارد لك القميص والبنطلون بكرة بعد ما يتغسلوا، ويتكووا..

وأقسم عبد الرحمن أن أضعهما كما هما في كيس لكي تقوم والدته بهذه العملية.. وانصرف عبد الرحمن بينما قلت في نفسي:

- اتفكت عقدة البدلة، وأول مبلغ يتجمع في إيدي ح اشتري بنطلونين، وقميصين عشان أول أم عبد الرحمن ما توسخ لي طقم ألاقي التاني نضيف ومكوي..

أربعة طوابع

(١)

كما جمعتهم الجيرة في حي السيدة زينب العتيق؛ جمعتهم الزمالة في نفس الصف الدراسي في نفس المدرسة.. وازدادت صداقة الثلاثة مع مر الأيام، وتقدمهم في سنوات الدراسة حتى حصلوا على الثانوية العامة معًا في نفس العام، فانتقلوا إلى الجامعة، وتفرقوا بين كلياتها؛ فمصطفى؛ التحق بقسم التاريخ في كلية الآداب، بينما انضم خليل في الجانب المواجه عبر المدخل الرئيسي للجامعة إلى كلية الحقوق، أما سعيد؛ فقد باعد المجموع بينه وبينهما في المكان؛ حيث التحق بكلية الخدمة الاجتماعية. لكن تفرقة الأماكن وتباين التخصصات الدراسية، لم تمنع لقاءاتهم اليومية.

الغريب؛ أن الثلاثة رسبوا في العام الدراسي الأول لهم بالجامعة، وكأنما أراد القدر أن يضيف لهم عنصراً من عناصر التماثل والاقتراب.

التقى الثلاثة عصر يوم من أيام الربيع مع صديقهم المشترك فريد غنيم، واشتكوا من فائض الوقت الذي لا يعرفون كيف يمضونه حيث تقتصر دراسة كل منهم خلال العام، على ثلاثة مواد سبق لهم استيعابها في العام السابق، صحيح أنهم لم ينجحوا فيها، لكنهم كانوا قريبين من النجاح.. وسألهم فريد:

- إذا كانت هناك فرصة لعمل مؤقت، هل ترغبون في استثمارها؟

وأجابوا معاً وبكلمة واحدة:

- ياريت!

واتفقوا على الالتقاء في الصباح التالي، ثم اتجهوا معاً إلى حيث استقبلهم أحد الموظفين في إدارة من إدارات سفارة أجنبية. خاطبهم باللغة الإنجليزية.. ويبدو أن ذلك كان لاختبار مستوى معرفتهم باللغة.. ثم سلم كل منهم استمارة مطبوعة

لملء بياناتها، وبعد أن قاموا بذلك وأعادوا الاستمارات إليه، فوجئوا به يخاطبهم بالإنجليزية قائلاً:

– حسناً. المرتب الشهري ثلاثون جنيهاً بالإضافة لبعض المزايا الأخرى. إذا كنتم موافقين، فستتجمعون في العاشرة من صباح الغد في جناحنا بأرض المعارض المجاورة لكوبري الجلاء لمقابلة مستر حبيب لتسليمكم العمل.

تعجب الثلاثة من سهولة الإجراءات إلى درجة شكهم في مصداقية الأمر، فهم لم يعهدوا في موظف مصري – مهما علت وظيفته – أن يكون " شورُه من طرطورُه " ويكون هو صاحب القرار الأول والأخير بشأن تعيين موظفين، بل وتحديد أجرهم، وتاريخ استلامهم العمل. ورغم سماعهم لرقم المرتب الشهري على أنه ثلاثة عشر جنيهاً وليس ثلاثين جنيهاً لتقارب نطق الرقمين من بعضهما في اللغة الإنجليزية خاصة مع اللكنة الأمريكية الغريبة على مسامعهم، إلا أنهم سعدوا أيما سعادة لأن الحكومة المصرية كانت تعين الحاصلين على مؤهل متوسط بعشرة جنيهات شهرياً..

في طريق عودتهم، وحين صحح لهم فريد الرقم وأوضح لهم أن ذلك أدنى مرتب لمن يعمل في أي عمل مرتبط بالسفارة، اعتذر لهم عن ذلك، لكنه أوضح لهم أن عدة مزايا أخرى ستضاف للمبلغ، فمن حقهم استلام ملابس عمل أنيقة، ووجبات يومية وما إلى ذلك. كان رضاؤهم واضحاً، وابتساماتهم عريضة، وافترقوا للاستعداد للحدث على أن يلتقوا أمام بوابة المعرض في العاشرة إلا ربعاً من صباح اليوم التالي.

التقوا مستبشرين يعلوهم الحبور والحماس لنوع جديد من الحياة، ودخلوا عبر بوابة المعرض، بعد أن سألوا عن موقع الجناح الأمريكي، وحين وصلوا إليه سألوا عن المستر حبيب، فالتقاهم؛ رجل قصير ممتلئ تبدو ملامحه شرقية رغم لكنته

الأمريكية ولقب مستر.. المهم، قدموا أنفسهم إليه، فأخرج من درج مكتبه كشفاً، راجع أسماءهم على المسجل فيه، ثم أومأ برأسه موافقةً، وقال لهم بالإنجليزية:

- أنتم من الآن موظفون بالجناح وستتلقون كافة التعليمات الخاصة بالعمل من المستر علي خيري، الذي سيسلمكم خطابات لمحلات (...) لأخذ مقاساتكم لتفصيل "اليونيفورم"، وسيسلمكم "بادج" يتم تثبيته على ربطة العنق، وآخر تثبتونه على صدر السويتر. وسيبدأ عملكم اعتباراً من يوم الاثنين القادم..

استمعوا بإنصات لتعليمات المستر حبيب وخرجوا من مكتبه فراجعوا مع بعضهم تعبيراته التي استنتجوا بعضها لعدم وضوحها بالنسبة لهم، وفي مكتب المستر علي خيري رحب بهم بضيافة مصرية، وأكمل تعليمات العمل التفصيلية بلغة عربية ولهجة عامية:

- أهلا بيكم.. إحنا حانشتغل مع بعض اعتباراً من دلوقت.. وإن شاء الله حانكون أصحاب في الشغل، أنا أخوكم علي خيري، بكالوريوس إدارة في الجامعة الأمريكية، ومسئول عن الإشراف على مجموعتكم، وكلنا – مع بعض – حانكون مسئولين عن توجيه الزوار لمواقع المعرض، وتسليمهم النشرات والكتيبات، إضافة لمنع الزوار من دخول الأماكن غير المخصصة للزيارة. مواعيد العمل من عشرة صباحاً، لعشرة مساء وفي فترة راحة للغدا مدتها ساعتين بالتناوب، وفترة راحة للترفيه ساعة بالتناوب برضه، مع يوم راحة أسبوعية حايتم تحديده لكل فرد حسب رغبته قدر الإمكان. كمان يهمني أقول، إن الدفتر اللي حايستلمه كل واحد منكم دلوقت مقسم إلى تلات بونات يومية، الأول؛ بوجبة خفيفة عبارة عن ربع فرخة محمر أو مشوي حسب الاختيار، والثاني؛ دونتس بدون تحديد عدد، والثالث؛ أيس كريم. ودلوقت كل واحد منكم ياخد جواب عشان تفصيل اليونيفورم ويكتب عليه اسمه. وفي المحل حاتسجل عنوان السكن ورقم التليفون علشان المحل حايبعت الملابس على عنوانكم يوم الحد، وحانبدأ

العمل بالحضور بالملابس الرسمية يوم الاثنين الساعة عشرة إلا ربع. أي سؤال؟

ابتسم الجميع في رضا وقال خليل:

- بصراحة حضرتك ماسبتش حاجة نسأل عنها.. وان شاء الله حانكون عند حسن ظنك.

وعلق على:

- ماشي. بس احنا هنا علاقتنا بسيطة جداً، مافيش حضرتك، وكمان حانخاطب بعض بأسماءنا من غير مستر ولا أستاذ، وبعدين إحنا زمايل أنا طالب في الجامعة، وانتو كمان زي ما أنا شايف في الـ "أبليكيشن" بتاعكم، طلبة في الجامعة برضه. نبقى زمايل. أوكي؟
- أوكي. أي أوامر.
- لأ شكراً.. ودلوقت اتفضلوا علشان تلحقوا تجهزوا نفسكم، وابدأوا بالمحل علشان يلحق يفصل لكم اليونيفورم.

كانت انطباعاتهم عن اللقاء الأول طيبة بشرتهم بفترة ثرية من حياتهم، ولوناً جديداً من العلاقات، فمضوا – كما نصحهم علي خيري – إلى محل الملابس.. حيث سُجلت بياناتهم ومقاساتهم بدقة، وفهموا أن الملابس ستحوي بنطلوناً وسويتر من الصوف الكحلي وقميصين من اللون الأبيض أحدهما نصف كم والآخر بكم طويل مع رباط عنق أحمر..

(٢)

مع أول أيام شهر إبريل كانت أول أيام العمل، وكم كان ممتعاً؛ في كل ما فيه جديد: نوع العمل، العلاقات مع زملاء العمل؛ خلطة من الجنسيات أكثرها من مصر ومن الولايات المتحدة إضافة للعلاقة مع الجمهور الزائر للمعرض والذي تعامل معهم بإكبار، وبدوا جميعاً مميزين في ملابسهم الرسمية الأنيقة، وتعرفوا

على عشرات من زملائهم ومعظمهم من طلبة الجامعات بكلياتها المختلفة، وكانت حصيلتهم (طبقاً لتعبيرهم) في اليوم الأول فقط؛ عشرات من بنات حواء من كل أطيافهن؛ طالبات في الثانوي ضمن رحلات من كل محافظات مصر، وطالبات جامعيات، وربات بيوت، وبائعات هوى.. ومن كل الطبقات؛ أعلاها، وسافلها، وشعروا بتطبيق نظرية العرض والطلب لأنهم هم الجانب الأقوى في علاقتهم بكل هؤلاء، فعادوا إلى بيوتهم راضين عن يومهم، وفي جيوبهم سيل من أرقام التليفونات.

في اليوم التالي، والذي يليه، تكررت مجريات اليوم الأول، مع اختلاف في بعض التفاصيل، فقد توثقت معرفتهم بفتاتين على درجة عالية من الأهمية، الأولى مادلين في نافذة بيع المأكولات، وأصبحوا يحصلون عن طريقها على كل ما يطلبون لهم ولأقربائهم وأصدقائهم الزائرين للمعرض من الدجاج والدونتس والآيس كريم دون تقديم البونات في المقابل، أو دفع نقود، وحين تناقشوا حول مشروعية ذلك وشرعيته، فوجئوا برأي رئاساتهم أن حصيلة البيع سواء من النقود أو البونات، ليست مقصودة لذاتها، وإنما الهدف هو الترويج للدجاج المجمد والذي لم يكن الذوق المصري قد تقبله، في زمن كان الإنسان المصري لديه رفاهية الاختيار، وأن تحديد سعر معين للوجبة هو لتحديد المتعاملين ومنع التزاحم لوتم التوزيع بالمجان.. واسترجعوا ما كان يتم خلال فترة دراستهم الابتدائية حين كانت المعونة المقدمة من النقطة الرابعة الأمريكية توزع عن طريق المدارس؛ فكانوا يعودون إلى منازلهم في كل يوم خميس يحملون الزبد، والجبن واللبن (المجفف)، فزادتهم الذكريات اقتناعاً، بأن المهم هو تذوق الناس – أي ناس – لمنتج مطلوب ترويجه. وتصادف أن حدثت واقعة في اليوم الخامس من عملهم حيث رأوا زميلاً لهم يجلس تحت مظلة عند مدخل الجناح ومهمته أن يسلم كل زائر كتيباً يحوي معلومات وبيانات عن الإنتاج الزراعي في الولايات المتحدة، وقد لاحظ أن طفلاً تكرر دخوله

وخروجه عشرات المرات وحصل في كل مرة على نسخة من الكتيب، تركها مع زميل له خارج الجناح قبل أن يعود من جديد. وعندما مد الطفل يده للحصول على كتيب جديد؛ رفض الموظف وحاول إمساك الطفل من يده، لكنه انطلق مسرعاً، وانطلق الموظف في أثره، وتصادف مرور المستر حبيب، فاستوقف الموظف وسأله عن سبب تركه لموقع عمله ومطاردة الطفل:

- فيه إيه يا يسري. بتجري وراه ليه؟
- دا بقى واخد ييجي رزمتين كتيبات لحد دلوقت يا مستر.

وضحك المستر حبيب في سخرية وسأل الموظف:

- وإيه المشكلة يا يسري.. إجري وراه وهاته، أنا عايزه.

وانطلق يسري عدواً في أثر الغلام حتى أمسك به وأحضره وهو ينتفض هلعاً ورعباً، فهدأ المستر حبيب من روعه، وربت على كتفه مطمئناً، ثم أمسك بربطة كاملة من الكتيبات وأعطاها للغلام وطلب منه الحضور كلما أراد أن يحصل على ربطة جديدة، واندهش يسري وتساءل عن الهدف مما حدث، ورد المستر حبيب متسائلاً:

- إحنا طابعين الكتيبات دي ليه وبالعدد الكبير ده؟
- علشان نوزعها على أكبر عدد من الزوار.
- طيب واللي مايزورش المعرض، ممكن نوصل له الكتيب؟
- طبعاً لأ.
- وطبعاً ليه؟ أمال الولد ده بيعمل إيه؟
- الولد ده بياخد الرزمة زي ما هي بقفلتها، ويبيعها لصاحب مقلة أو بتاع ترمس يعملوها أكياس ولا قراطيس.
- وحتى لو كده.. هو صاحب المقلة ده مش ممكن يفتح الرزمة ويبص في الكتيب يشوف فيه إيه؟

- ممكن بس حايبقى واحد بس اللي شاف الكتيب مع إنه أخد رزمة.
- حتى دي فيها فايدة لأنه واحد بعيد مادخلش المعرض شاف اللي إحنا عايزينه يشوفه..

واقتنع يسري لقناعته أن الأمريكيين لا تعنيهم النفقة في سبيل تحقيق الهدف.

انصرف المستر حبيب مع إحساسه بأنه لم يقنع يسري وحده بما أراد، وإنما أقنع مجموعة من الزملاء كانت على مقربة منهم وتعمد حبيب استقطابهم للحديث تعميماً للمنفعة.

أما الفتاة الثانية التي تعمدوا توثيق علاقتهم بها، وشجعتهم هي بابتسامة رقيقة مرسومة على الدوام على شفتيها فكانت جاكلين، ممرضة من أصول سويسرية، جميلة، تبدو ملاكاً في ملابسها البيضاء، تقبع على الدوام في العيادة رغم ملاحظتهم عدم تردد غيرهم عليها، والذي بدأ، يوم أحس خليل بصداع لازمه بعض الوقت، فاصطحبه مصطفى وسعيد إلى العيادة بحثاً عن قرص أسبرين لا أكثر.. وفوجئوا بها تطلب منه أن يتمدد على سرير الكشف ووضعت له ميزان الحرارة تحت لسانه، ثم جاءت بمقياس الضغط ولفته حول ساعده، وجلست إلى جواره تقرأ العداد بعد أن وضعت السماعة على أذنيها.. ولاحظا سعادة غامرة وبادية على وجه خليل، وهي تمسك ساعده، ثم وهو يطلب منها إعادة القياس مرة أخرى لشكه في صحة القراءة، ولاحظت هي الأخرى، لكنها لم تملك سوى الإعادة.. ثم تركته مستلقياً، وأحضرت له قرصاً وكوباً من الماء رفع رأسه قليلاً وهو يتناوله، فأسندت رأسه بكفها حتى ابتلع القرص ومعه قليل من الماء، وأخذت منه الكوب، فوضعته في حوض قريب وقالت له بكلمات أساسها عربي لكن نطقها حولها للغة أخرى:

- حاتكون كويس بعد شوية.

شكرها الجميع وغادروا.. لكن الزيارة تكررت، وفي كل مرة كانت مرافقة لخليل الذي أدمن التردد عليها بحجج مختلفة وواضحة التصنع، وتصنعت هي قبولها.. ثم اعتاد الطرفان الزيارة ولم يعودا بحاجة للتعلل بأي سبب، بل أصبح الحديث يتطرق إلى أمور عامة، وسادت علاقة تقترب من الصداقة وعلى الأكثر مع خليل..

وفي إحدى الزيارات، رأوا مشهداً جذب نظرهم بشدة؛ غلام يزيد سنه قليلاً عن العاشرة حضر، فاستأذنت منهم بالانشغال معه لحظات، وكشف الغلام عن جرح في ساقه بدا أنها طهرته ووضعت عليه غياراً معقماً في زيارة سابقة، فاستبدلت الغيار بآخر، وقبل أن ينصرف الغلام قالت له:

- محمد. دقيقة واحد. أنا جبت بيجاما علشانك.

واتجهت إلى دولاب في ركن الغرفة أخرجت منه كيساً وسلمته للغلام. تعجب الثلاثي إذ من أين أتى هذا الغلام؟ وهل يدخل إلى المعرض ليتلقى العلاج؟ ومن أين له بمعرفة المكان، أو معرفة جاكلين؟

وترجم مصطفى هذه الأسئلة بشكل لائق لا يمثل تدخلاً:

- إنتوا بتعالجوا الناس دي وتجيبوا لهم ملابس على حساب مين يا جاكلين؟
- في جمعية تبع الكنيسة، بتجمع تبرعات.. وممكن عمل خير مع الناس.
- بس الولد ده اسمه محمد. يعني مسلم.
- الجمعية تبع كنيسة، لكن الخير مع كل الناس. تبرُّع كمان من كل الناس.

ابتسم الثلاثي ابتسامة رضا وتشجيع وسألها خليل:

- يعني إحنا ممكن نتبرع؟
- طبعاً ممكن. فيه طوابع ممكن إنت خد واحد.. أكتر. وكل اللي عاوز.

وقدمت دفتر طوابع عبارة عن عدد من الأوراق، كل منها مقسمة إلى أربعة طوابع مرسوم عليها رسوم متداخلة كأنها فروع وأوراق نباتات وأسفل كل منها دائرة صغيرة مكتوب عليها رقم ١٠ تفحصها سعيد ثم سألها:

- عشرة إيه؟ مليم ولا قرش ولا إيه؟

وأجابت في بساطة شديدة:

- مش مهم اللي عايز يدفع عشرة مليم ممكن، واللي عايز يدفع عشرة قرش ممكن.. أنا حتى أول مرة آخد بالي إن مكتوب عشرة..

وعندما هموا بالإنصراف قالت لهم:

- لو فيه حد أصحاب يحبوا ياخدوا؛ ممكن..

ورحبوا بالفكرة، فقد اقتنعوا بمصرف التبرعات من جهة، ومن جهة أخرى فالموضوع يشكل سبباً إضافياً ومناسباً، لمزيد من التردد عليها..

خرج الثلاثي من العيادة واتفقوا أن يمضوا الوقت الباقي من راحتهم – وهو يزيد عن الساعة والنصف – في الكافيتريا المجاورة للجناح والتي تديرها جمعية ترأسها سيدة سمعوا كثيراً عنها من عمال الكافيتريا؛ فقد تحدثوا عن نشاطها الاجتماعي الواسع، واتصالاتها بمسئولين في الحكومة وفي الاتحاد القومي الذي يحكم الحكومة، وتحدثوا عن جديتها وصرامتها، لكنهم تحدثوا أيضاً عن طيبة قلبها، وسخاء يدها وخاصة مع الفئات الدنيا والمقهورين، فتطلعوا للقاء تلك الشخصية الملفتة..

وكالعادة، طلبوا من مادلين ثلاثة دجاجات مشوية وعشرة أرغفة كايزر، وضعتها مادلين في كيسين كبيرين من الورق المفضض ومعها كمية من الفوط الورقية، واتجهوا إلى كافيتريا صديقات المرأة حيث قابلهم العمال بالترحاب المبالغ فيه، فسلموهم الوليمة التي حملوها، ثم جلسوا إلى مائدة وطلبوا لكل منهم ساندويتشين؛ أحدهما طعمية والآخر فول وكوب من الشاي.. وفي لحظات كانت

الساندويتشات مضافاً إليها السلاطة والمخللات وأكواب المياه على المائدة، وما هي إلا لحظات أخرى، حتى كان الشاي هو الآخر على المائدة، فأكلوا، وشربوا وسألوا عن السيدة/ سعاد رئيسة الجمعية. فأفادهم العمال أنها تركت المكان إلى خارج المعرض لقضاء حاجة ما، وأنها ستعود قبل الليل، لكن والدتها موجودة، ويمكنهم ترك أي رسالة معها.

تشاور الشباب، ثم طلبوا من أحد العمال استدعاء الوالدة، التي حضرت ورحبت بهم وأخبرتهم بما سبق للعمال أن أخبروهم به عن السيدة/ سعاد فأخرج مصطفى دفتر تذاكر التبرعات ومد يده في اتجاهها قائلاً:

- طيب من فضلك لما تيجي مدام سعاد، إديلها الدفتر ده فيه تذاكر تبرعات واحنا عارفين إن لها اتصالات واسعة بالإضافة لزباين الكافيتريا، فلو قدرت تجمع التبرعات منهم أو تشتري هي أي عدد من التذاكر يبقى كتر خيرها واهو نشاط إنساني واجتماعي إحنا سمعنا إنها بتحب تقوم بيه.

تلقت السيدة، الدفتر ووعدت بتوصيل الرسالة وطلبت منهم معاودة الحضور في المساء لمعرفة الرد..

شكرها الشباب وانصرفوا، وتحاوروا حول الجناح الذي يزورونه فقد اعتادوا زيارة جناح دولة مختلفة في كل يوم، يتعرفون على العاملين والعاملات فيه، ويتبادلون معهم البادجات التي ترمز لهذه الدول.. وساقتهم أقدامهم إلى حيث وجدوا الجناح السوفيتي أمامهم، وتعجبوا من أنفسهم لمرور اثنا عشر يوماً من إبريل دون أن يدخلوا الجناح المواجه للجناح الأمريكي والذي يخص دولة دائمة المواجهة مع أمريكا..

فدخلوا على الفور إلى الجناح المغاير شكلاً وموضوعاً وروحاً للجناح الذي يعملون فيه، إلا أنهم رأوا جواً احتفالياً، وابتسامة تكسو كل الشفاه، وفرحة تغمر كل الوجوه، وهموا بالسؤال عن السبب ثم توقفوا ليتابعوا بياناً عبر مكبرات للصوت تعلن

عن نجاح سفينة الفضاء "سبوتنيك الشرق" في الهبوط سالمة بعد دورانها في الفضاء على ارتفاع تسعين ميلاً، ورأى قائدها الميجور يوري جاجارين الخط الفاصل بين الليل والنهار ورأى انحناءة الكرة الأرضية فكان أول من غزا الفضاء وكان أول شاهد على كروية الأرض، ورأوا الفرحة بجنون على وجوه السوفييت، وتوالت إذاعة تفاصيل النبأ الخطير فأحسوا أنهم تابعوه من داخل الاتحاد السوفيتي.. وعادوا إلى الجناح الأمريكي ليروا انكساراً ومشاعراً باهتة، وعدم تصديق للسبق السوفيتي الخطير وترقباً لرد الفعل هناك عبر الأطلنطي..

كانت لديهم فترة راحة ثانية من السابعة إلى،الثامنة مساءً، اتجهوا خلالها إلى،كافيتريا صديقات المرأة بحثاً عن السيدة/ سعاد لمعرفة رأيها في موضوع التبرعات.. وحين وصلوا إلى هناك تعرفوا من تلقاء أنفسهم على السيدة؛ كانت امرأة في بداية الأربعينيات، ممتلئة، مظهرها يخلو من أي تكلف، تلبس حذاء يكاد يكون بلا كعب، وفستان بسيط، تمشط شعرها طبقاً لاتجاهاته الطبيعية ولا تضع مكياجاً، على الكرسي المجاور لها تضع حقيبة يدها، في حجم حقيبة سفر، مصنوعة من القش ومقابض مطعمة بالجلد أو المشمع.. وحين رأتهم في "اليونيفورم" المميز، تعرفت هي الأخرى عليهم، فرحبت بهم ودعتهم للجلوس، وفتحت حقيبتها، وعبثت بيدها في محتوياتها قبل أن تخرج علبة سجائر ومعها "بوكس" من أعواد الثقاب، وقدمتها لهم سائلة:

- حد بيدخن؟

ولما أشاروا برءوسهم وأيديهم بالنفي، سألتهم:

- تشربوا شاي ولا حاجة ثانية؟

وأجاب سعيد ومصطفى:

- آه نشرب شاي.

بينما أجاب خليل بما فاجأهم:

- أنا آخد قهوة على الريحة.

كان النادل يقف مقترباً لتلقي الطلبات، وأشارت له السيدة/ سعاد بالتنفيذ، ومضى النادل بينما قالت السيدة موجهة حديثها للشباب الثلاثة:

- ندخل في الموضوع؟
- ندخل. إحنا جايين علشان كده.
- مين فيكم اللي أخد الطوابع دي وجابها هنا؟
- كلنا.

وأبدت دهشتها من ردودهم المتزامنة والمتوافقة:

- هي مظاهرة ولا إيه؟ عموما. أنتم جايبينها منين؟

رد سعيد منفرداً في حالة نادرة:

- من ممرضة في الجناح.

كأنما لدغها عقرب حين سمعت إجابة سعيد وسألت في عصبية وفورية:

- آه بقى؟ جاكلين؟

عادت الإجابات الفورية:

- مالها جاكلين؟ بنت طيبة وبتساعد ناس كتير على يدنا و...

وقاطعتهم بحدة:

- طيب شوفوا: إنتم لسه شباب صغيرين، ومالكوش خبرة بحاجات حواليكم، البنت دي من أخطر ما يمكن، هي حلوة وبتدِّعي الرِّئَّة لكن دي حية وممكن تدمر مستقبلكم.

اندفع خليل بحمأة شاب جامعي لم يقبل على نفسه وزملائه أن يعامل كطفل يتلقى النصائح، وممن؟ من امرأة لم ير فيها ما يمنحها الحق لاختلاق فارق واسع بينها وبينهم لصالحها؛ فقال:

- إحنا مش جايين نتلقى نصائح، ونقيِّم بنت بصرف النظر هي مين؟ إحنا جايين نعرض على حضرتك تتبرعي أو تساعدينا في بيع الطوابع لصالح جمعية خيرية. لو حاتشتري أو تساعدي، شكراً. مش حاتشتري، برضه شكراً، على الأقل ع الشاي والقهوة.

هدأت نبرتها، ولكنه هدوء حمل وعيداً مؤجلاً:

- أنا نصحتكم وعملت اللي عليَّ. مش قابلين النصح إنتم حُرِّين وحاشتري أربع طوابع. بس ماتزعلوش من أي نتائج تسبب لكم أذية..

ثم نزعت صفحة من الدفتر، ونظرت فيها ثم سألت:

- هو ثمن الطابع كام علشان المكتوب عليه مش محدد؟

أجابها خليل:

- عشرة مليم.. عشر قروش. زي ما انت عايزة.

واستفزتها الإجابة أكثر وأكثر فتساءلت:

- يعني كمان القيمة مش محددة. إنتم عارفين إن جمع تبرعات بدون ترخيص عقوبته تلات سنين سجن؟ إنتم طلبة في الجامعة؟

أجابها خليل:

- أنا في كلية الحقوق، ومصطفى في كلية الآداب وسعيد خدمة اجتماعية.

فعلقت:

- خسارة طلبة جامعة وتتعرضوا للي حاتتعرضوله. بس أنا عملت اللي علي أنا حا ادفع أربع قروش وأخذت أربع طوابع.

وأخرجت من حقيبتها حفنة من العملات المعدنية فالتقطت منها أربعة قروش وقدمتها لخليل:

- آدي أربع قروش. وأدي بقية الدفتر. كده تمام؟

وقف الثلاثة، ووقفت، فصافحوها وعادوا إلى الجناح لاستكمال فترة عملهم.

(٣)

كان منظر سعيد عند مغادرته لمكتب مستر جاكسون؛ مدير عام الجناح كثور يغادر حلبة المصارعة وقد زرع المصارع في رقبته عدة رماح، كان الشرر يتطاير من عينيه، والدخان يخرج من أذنيه، ورجلاه تلتفان حول بعضهما خلال سيره حتى وصل،إلى حيث كان زميلاه؛ خليل ومصطفى، فأثار قلقهما الشديد وسألاه في لهفة:

- مالك يا سعيد؟

فخرجت من بين شفتيه مجموعة حروف مبعثرة امتصت جزءاً من حدة غضبه قبل أن يتمكن رفيقاه من تجميع عبارات مفهومة نسبياً كان منها:

- أنا لا يهمني مدير عام ولا وزير.. هو فاكر نفسه سيد الناس ولا إحنا عبيد عنده؟ بلا عنطزة فارغة وقلة ذوق..

وتجمع بعض زملائه إضافة لخليل ومصطفى ما لفت نظر المستر حبيب الذي تصادف مروره من المكان فسمع الكلام ورأى المشهد، فاقترب من الجمع وسأل مستطلعاً الأمر:

- فيه إيه يا سعيد؟ مالك.. وإيه العصبية دي كلها؟ مين زعلك؟

وأجاب سعيد ومازال على درجة عالية من الغضب:

- مستر جاكسون.
- ماله؟ هو اللي زعلك؟ دا عمره ما زعل حد. عمل لك إيه؟
- طلبني أروح له المكتب.. وأنا استغربت لأنه مافيش علاقة مباشرة بينا. لكن دا المدير العام. رحت المكتب. خبطت ع الباب. جاني الصوت من جوه: "ادخل".. فتحت الباب ودخلت، فوجئت بالمستر جاكسون قاعد ع الكرسي وحاطط رجليه ع المكتب في وش الباب، وبيتكلم وهو حاطط البايب ف بقه ومطلع سحابة دخان وهو بيتكلم..

واستحثه المستر حبيب في هدوء:

- وبعدين؟
- بعدين إيه؟ باقول لحضرتك حاطط رجليه ف وشي، والبايب ف بقه مش مخليني فاهم هو قال إيه؟
- طيب يا سعيد. لحد دلوقت أنا مش فاهم فين المشكلة.
- فين المشكلة؟ إنت ترضى يا مستر حبيب تدخل على حد هو اللي طالبك وتلاقيه حاطط رجليه في وشك وهو بيكلمك؟
- قوي. مادام هو أصلاً قاعد كده، ومستريح ع الوضع ده. أتعبه ليه؟ خصوصاً إنه ماقصدش يحط رجليه في وشي. دي ثقافات. إنت ممكن مستر جاكسون يدخل عليك وانت حاطط رجليك في وشه وماتتحركش وهو مش حايزعل. بقى انت كل الزعل ده عشان الراجل مريح نفسه؟
- أنا حاسيت بإهانة وإنه قاصد يستهزأ بي و....
- يا راجل هو سبق بينكم معرفة؟ طب دا إنت كده اللي أهنته، وسبته وخرجت من مكتبه من غير ماتعرف كان طالبك ليه. دا أنا حاروح مكتبه أطيب خاطره واشرح له اللبس اللي حصل.

ثم توقف مستر حبيب لرؤيته شرطياً يدخل من بوابة الجناح، وفي يده ورقة أطلع حارس البوابة عليها حيث أشار له إلى حيث كان مستر حبيب والمجموعة يقفون.. وتقدم الشرطي. وقدم الورقة التي في يده في اتجاه المجموعة والتقطها مستر حبيب، وقرأ أسماء خليل وسعيد ومصطفى بينما قال الشرطي:

- الثلاثة دول مطلوبين قدام صلاح بيه رئيس نقطة الشرطة.

وسأله حبيب:

- ليه؟ في إيه؟

وأجاب الشرطي:

- أنا مااعرفش بس هو عايزهم دلوقت حالاً.
- طيب يخلصوا شغلهم كمان ساعة ويروحوا لصلاح بيه.
- لأ صلاح بيه قال لي: ييجوا معاك.
- ماشي يا سيدي. اتفضلوا معاه يا جماعة ولما ترجعوا طمنوني عليكم.

وانطلق الشرطي وبرفقته الثلاثة إلى حيث كانت نقطة الشرطة فطرق الباب الزجاجي ثم دخل فأدى التحية للجالس على المكتب في المواجهة قائلاً:

- التلاتة أهم يا بيه.

دخل الثلاثة مع الشرطي إلى داخل النقطة حيث ألقوا التحية:

- مساء الخير يا صلاح بيه.

ولم يعرهم الضابط انتباهاً واستمر في الكتابة في دفتر أمامه.. وبعد عدة دقائق توقف، وألقى القلم على الدفتر، وتفرس في وجوههم مدققاً، بينما استعرضهم على التوالي بنظرة متفحصة من أعلى إلى أسفل ثم سألهم:

- إنتم أسماءكم إيه؟

وأجابوا بالإسم الأول لكل منهم على التوالي.. فاستوقفهم بعجرفة مقصودة:

- لما اسألكم عن أسماءكم، يبقى واحد.. واحد يقول اسمه التلاتي.

بدأ خليل مجيباً في بساطة، أو تبسط متعمد:

- سعيد محمد عبد الراضي.

وتلاه مصطفى:

- مصطفى صبحي الإبياري.

وتبعهما سعيد:

- وأنا بقى سعيد رضا رمزي.

واستوقفه النقيب:

- إيه "وأنا بقى" دي. إنتم فاكرين نفسكم فين؟ إنتم في نقطة شرطة ومتهمين بعَملة سودة. تقفوا كده لحد ما تتم أقوالكم ونشوف إيه اللي حايتم.

وسأله خليل:

- طب مش حضرتك تقول لنا إيه التهمة الخطيرة دي؟ وحتى لو كانت خطيرة بجد فالمتهم برئ حتى تثبت إدانته، يعني حضرتك تعاملنا باحترام، ونقعد ونجاوب على الأسئلة اللي إحنا مش مجبرين نجاوب عليها ولا حتى نيجي هنا إلا باستدعاء من النيابة.

وعلى عكس المتوقع، فقد عدل النقيب من طريقته مع محاولة لعدم إظهار ذلك:

- طيب يا حضرة المحامي ماتستعجلش ع النيابة، حايكون فيه نيابة ومحكمة كمان، بس كل شيء بوقته.

وعلق خليل:

- أنا لسه مابقيتش محامي، لكن على ذكر المحامي إحنا من حقنا بعد ما نعرف تهمتنا مانتكلمش إلا في حضور محامي.

في هذه اللحظة دخلت السيدة/ سعاد فألقت التحية على النقيب وجلست على كرسي أمام مكتبه، وأخرجت ورقة الطوابع فقدمتها إليه وبالطبع فهم الثلاثة تهمتهم، فنظرت إليهم معتذرة مع إلقاء اللوم عليهم:

- معلش يا شباب إنتم اللي اضطرتوني لكده..

وأخرج النقيب ورقة، كتب عليها بعض العبارات قبل أن يسأل السيدة عن المتهم الأول، فأجابه الثلاثة في تزامن دقيق:

- أنا.

نظر النقيب إليهم مؤنباً:

- إنتم فرحانين؟ فاكرينا بنلعب؟ دي جناية.

وعقبت السيدة:

- أنا أخدت الطوابع واديت الفلوس لخليل.

قبل أن يتوجه النقيب إلى خليل بأسئلة التحقيق، رفع سماعة التليفون وأدار القرص، وبعد لحظات كانت مكالمة مع طرف آخر:

- مساء الخير يا هشام بيه.. النقيب صلاح يا باشا.. آه موضوع صغير ياريت أتشرف وتاخد فنجان قهوة معايا.. ما اتحرمش يا افندم. في انتظارك يا باشا..

وانتهت المكالمة فوضع السماعة، وفهمت السيدة أن وكيل النيابة هو المتحدث على الطرف الآخر بينما لم يستنتجوا هم فتوجهت إلى الضابط وتساءلت:

- إنت مستعجل ع النيابة ليه؟ مش لما تخلص التحقيق؟ وبعدين، هوَّ وكيل النيابة جاي ودّي؟

ولم يجب النقيب عليها وإنما بدأ في توجيه الأسئلة إلى خليل.. وسأله عن صحة ما ادعته السيدة من تلقيها للطوابع منه وأنها سددت له أربعة قروش ثمناً لها، ولما أجابه بالإيجاب سأله عن مصدر حصوله على الطوابع فأجابه:

- جاكلين بوتاكي. ممرضة في الجناح الأمريكي.

توقف النقيب عن استكمال التحقيق بينما أخرج قصاصة وكتب عليها اسم جاكلين ثم أعاد سؤال خليل عن اسم والدها حيث كرره مرتين وفي الثالثة أملاه عليه حروفاً فسجله النقيب على الورقة ثم استدعى الشرطي وسلمه الورقة وكلفه بإحضار جاكلين واستوقف سعيد الشرطي بينما وجه حديثه للنقيب:

- لا يمكن حاتيجي مع العسكري. لو عايزها تيجي أنا حاروح أجيبها.

ووافق النقيب بسهولة وطلب منه إحضارها فانصرف سعيد بينما واصل النقيب استجواب خليل مشدداً عليه في الأسئلة وفي أسلوب التعامل حتى تذمر خليل وصاح في وجهه:

- لو استمريت تتعامل معايا كده حاامشي. أنا مش مجرم قدامك..

واختصر النقيب أسئلته ثم أنهاها بالنسبة لخليل، والتفت إلى مصطفى فسأله عن اسمه ورقم بطاقته وجهة صدورها، وحين أجاب بأنها صادرة من دكرنس دقهلية فزعت السيدة وسألته:

- كلكم من دكرنس؟

- أيوه.

وأصابها هلع حين اكتشفت أنه من نفس القرية الصغيرة التي تنتسب هي لها فقالت له:

- حرام عليكم. ماتجيش إلا معاكم؟ دا انتم أهلي وفعلاً ممكن نكون قرايب..

وعاد سعيد إلى النقطة وبرفقته جاكلين حيث قدمها للنقيب الذي فغر فاه وتلعثم، واحمر وجهه بينما لم يرفع عينيه عن جاكلين، وأشار إلى مقعد قريب منه ووجه حديثه إليها في رقة ملحوظة:

- اتفضلي استريحي.

ولم تكن السيدة/ سعاد بحاجة إلى محفزات إضافية لكي تصب جام غضبها على الفتاة، فانتفضت واقفة بينما صرخت في وجه النقيب:

- اشمعنى هي اللي تقعد يا صلاح بيه؟ ما انت موقف الشباب بقالك ساعة، دا هي المتهم الأول اللي مفروض يفضل واقف يا صلاح بيه.

وغضب النقيب واستشعر الحرج الشديد لذلك التوبيخ وبالذات في حضور الفتاة، فرد عليها:

- إيه يا مدام سعاد انت حاتديري التحقيق ولا إيه؟ أنا المسئول عن التحقيق وأمشِّيه زي ما أنا شايف ومقدر المصلحة.

- مصلحة مين يا باشا. انت حاتشيِّل الولاد دول الموضوع علشان خاطر عيون السنيورة؟

- حافظي على كلامك يا سعاد هانم. الكلام له أصول.

- وهي الأصول تظهر الخشونة الزايدة لشباب تنتهي مسئوليتهم لما يثبتوا إنهم خدوا الطوابع من السنيورة وردوا لها الفلوس ثمنهم؟
- ما شاء الله. إنت حاتعلميني أحقق إزاي يا مداد سعاد؟ طيب ماتيجي تقعدي مطرحي وتقومي بالتحقيق.
- مايسعدنيش يا سيادة النقيب. أنا ماشية وحاروح أقعد مطرحي أنا في الكافيتريا، ولما يوصل البيه النائب، لو عزتوني ابعت لي العسكري.
- مع السلامة.

وكانت قد أشعلت سيجارة سحبت منها نفساً عميقاً ثم نفثت دخانه في الهواء وغادرت النقطة.

ولم تكد تغادر النقطة حتى دخل شاب في ملابس رسمية فانتصب النقيب واقفاً ثم اتجه إليه حيث لقيه في منتصف المكتب مرحبا به في حفاوة بادية:

- أهلاً هشام بيه. اتفضل يا باشا..

وقدمه على نفسه وأشار إلى كرسيه الذي كان يجلس عليه خلف المكتب متخلياً عنه للبيه الذي استنتج الجميع أنه وكيل النيابة.. جلس النقيب إلى جوار وكيل النيابة، وأخذ يقص عليه ما وقع، وأطلعه على ما أنجزه في التحقيق، واستأذنه في استكمال التحقيق مع مصطفى، لكن النائب استوقفه وسأله عدة أسئلة سمعها الحاضرون:

- انت أخذت أقوال السيدة المبلغة؟
- لأ.
- أمال بنيت التحقيق على إيه؟ طيب الشاب الأولاني قال إن الممرضة سلمته الدفتر وبعدين استلمته ناقص أربع طوابع اللي اشترتهم المُبلغة ومعاهم المبلغ اللي دفعته، يبقى بدل ما ناخد أقوال الشباب، نسأل الممرضة عن صحة اللي ادعاه المستجوَب فإذا أقرت بيه مش حانحتاج لأي أقوال تاني..

وسكت لحظة ثم استدرك بسؤال رآه الأهم:

- هي فين الطوابع دي؟

أجاب النقيب:

- أهي. ورفع الدفتر والورق من أمامه توقعا لوجود الطوابع تحتها، فلم يجدها وفتح درج المكتب وبحث ثم بدا على بحثه عصبية واضحة ففتش في جيوبه بسرعة، ثم نظر إلى الأرض أسفل منه، ولما لم يجدها قال:

- أكيد سعاد أخدتهم.

وسأله وكيل النيابة:

- مين سعاد؟

- المبلغة.

- وإزاي تسيبها تاخدهم؟

- أنا ما اعرفش إنها أخدتهم. أنا باتوقع كده.

- لا دا كلام خطير. دول جسم الجريمة. من غيرهم، لا في تحقيق.. ولا في اتهام ولا أي حاجة. هي فين الست دي دلوقت.

- ف كافيتريا هنا. حا ابعت لها أجيب الطوابع.

ثم استدعى الشرطي مرة أخرى قائلاً:

- روح بسرعة لمدام سعاد وقول لها: النقيب صلاح بيقولك: انت أخدتي الطوابع؟ إذا قالت لك: آه. قول لها: هاتيهم. وهاتهم وتعالى.

ودق الشرطي قدمه في الأرض وأدى التحية واستدار، وقبل أن يتحرك لتنفيذ ما أمره به النقيب، استوقفه وكيل النيابة، وقال له:

- روح يا عسكري قول لها: النقيب صلاح بيقولك هاتي الطوابع اللي أخدتيهم.

وهز النقيب رأسه رأسياً مؤمناً على صياغة النائب، ومضى الشرطي وتوجه النائب للضابط قائلاً:

- يا صلاح بيه. العسكري لو سألها إذا كانت أخدت الطوابع حاتقول: لأ.. لأن أخد الطوابع بعد ما قدمتهم ليك يعتبر جريمة لسرقتها جسم الجريمة.

وبعد دقائق عاد الشرطي وبصحبته السيدة/ سعاد التي بدت عليها عصبية واضحة وبمجرد اجتيازها لباب النقطة، سألت الضابط يانفعال:

- عايز إيه يا صلاح؟ باعت لي ع الطوابع ليه؟

صعق وكيل النيابة من جرأة المرأة التي تحدث الضابط بانفعال وتناديه باسمه مجرداً وحين لاحظ سكوت الضابط وعدم ردعها، واجهها هو معنفاً:

- انت إزاي بتتكلمي كده مع سيادة النقيب؟ وإزاي تاخدي جسم الجريمة وتمشي وبعدين تقولي: باعت لي ع الطوابع ليه؟

واستنكرت السيدة/ سعاد أن يوجه لها الجالس على مكتب الضابط مثل ذلك التوبيخ فسألته بتجاهل:

- ماتشرفتش بمعرفة البيه اللي بيحاسبني..

ورد النقيب صلاح بسرعة:

- دا هشام بيه وكيل النيابة.

وردت مبدية عدم الاكتراث:

- أهلاً وسهلاً. وحضرتك جيت بتكليف رسمي للتحقيق؟ ولا بدعوة من صلاح على فنجان قهوة.

ورد النائب في ضجر واستنكار:

- لا. إنتي اتجاوزتي كل الحدود يا مدام.
- أوقفني عن حدودي يا باشا.
- انت بتتكلمي ليه كدا؟ انت دورك كله تقديم البلاغ. والإدلاء بأقوالك وبس.
- لا يا باشا. مش وبس. أنا باتابع التحقيق، ولو لقيت المسائل معووجة، أقدر أدخل وأعدلها، والباشا عايز يشيِّل الشيلة للي مالهومش دعوة، ويطلع الحلوة دي

(وأشارت بيدها إلى حيث تجلس جاكلين أمامها) زي الشعرة من العجين، يبقى الجواب باين من عنوانه.. أنا مستندي في جيبي وباب النائب العام مش مقفول قدامي..

كان الشباب سعداء بما يجري، واكتسبوا جرعة إضافية من الثقة، فصاروا يمازحون جاكلين من الحين إلى الحين، ويخففون عنها الضغط العصبي، وأحسوا بأنهم المستفيد الأول من تعقيد الموقف، فالضابط يرغب في قضية تحسب له، ولكنه يحس ميلاً نحو جاكلين يمنعه من تحميلها بالعقوبة، وبالتالي فالبديل هم الشباب كطرف حمل الطوابع وباع منها أربعة، وتقاضى ثمنها بصرف النظر عن الطرف الأصيل.. وسعاد تهدف إلى لف الحبل حول رقبة جاكلين، وبدا مؤكداً أنها تعرفها – أو تعرف عنها – جيداً، وتكن لها كراهية، تكفي لتوظيف علاقاتها واتصالاتها لعدم ترك تلك الفرصة الذهبية لإلقائها في السجن، ووكيل النيابة. وضع نفسه في موقف قد يضعف هيبته ويقلل من قدرته على الدفاع عن هذه الهيبة، نتيجة قبوله دعوة الضابط للحضور، فحضر بصفة شخصية دون أن يتوقع أن الحضور سمعوا دعوة الضابط إلى فنجان قهوة، ثم التعامل معه كوكيل للنائب العام حضر لمباشرة التحقيق، وبالتالي فقدرته على الحسم تلاشت، وتحول إلى مستشار يقدم الرأي، وحتى ذلك أصبح في حدود الهمس للضابط.

وإحساساً من الشباب بقوة موقفهم بدأوا يتململون من الوقوف لما يزيد عن ساعتين فصاح مصطفى فجأة:

– إيه يا صلاح بيه إحنا حانقف للصبح. يا تشوف لنا كراسي نقعد، يا نرجع شغلنا ولما تعوزنا ابعت لنا..

كان النقيب قد وصل إلى درجة من التوتر والضيق بحيث لم يحتمل إثارة إضافية لأعصابه، فرد بانفعال:

- انتو حاتقفوا لغاية ما يخلص التحقيق، واللي حايتحرك منكم من غير إذن حايشوف إيه اللي حايحصل له.

ورد مصطفى بانفعال أشد:

- هو إحنا الحيطة المايلة ولا إيه؟ مدام سعاد بتروح وتيجي براحتها وتتكلم براحتها وقاعدة على كرسي.. وجاكلين على كرسي، وطبعاً سعادتك والبيه وكيل النيابة قاعدين. مش فاضل غيرنا إحنا والعسكري اللي ع الباب اللي واقفين.

ثم التفت إلى خارج النقطة عبر الحاجز الزجاجي بحركة مسرحية ثم استمر في الحديث:

- ولا يمكن شاف له كرسي هو التاني وقعد.

وخلال التفاته نحو الباب رأى ثلاثة رجال يرتدون الملابس الرسمية يدخلون ويلقون بالتحية.. وتقف جاكلين مستأنسة بدخولهم بينما اتجهت إلى أحدهم:

- بابا..

ثم تحدثت معه بالفرنسية، وفهم الشباب مما تبادلاه، سؤالها له عمن أبلغه، وإجابته وضمنها أنه حضر ومعه اثنان من المحامين..

قدم المحاميان نفسيهما إلى الضابط، ووقف وكيل النيابة مخاطباً له في نفس الوقت.

- طيب أنا في النيابة يا صلاح بيه، وبعد ما يخلص التحقيق كلمني عشان أشوف واحدد التصرف على ضوء ما انتهى إليه.. وصافحه وانصرف.

أضاف انسحاب وكيل النيابة عنصراً مطمئناً للشباب حيث أوحى لهم بعدم رضائه عن كل ما حدث، وكان حضور المحاميين مريحاً لهم فالدفاع عن جاكلين – وهي الأشد تورطاً – سيوفر لهم خروجاً آمناً من الورطة.

وقفت السيدة سعاد ومالت لالتقاط حقيبة يدها ووجهت حديثها للضابط:

- أنا ماشية واعتبر البلاغ بتاعي كان دردشة، وأنا حاروح بالموضوع للنائب العام مباشرة.. سلام.

واستوقفها الضابط، وكأنه يسترحمها:

- الكلام دا خطير يا مدام سعاد. وانت كده بتحطيني قدام اختيارات مش ظريفة.

واستفزتها العبارة الأخيرة فتساءلت مستهجنة:

- مش ظريفة بالنسبة لمين؟ اوعى تكون بتقصدني. أنا با اتصرف زي ما انا عايزه.. وانت كمان اتصرف زي ما انت عايز.

وفي طريقها للخارج شدت من أزر الشباب هامسة:

- ولا يهمكوا نص ساعة وحاتمشوا. أما النونوسة دي فليَّ معاها حدوتة.

وحين سأل المحاميان عن التهمة الموجهة لجاكلين، أجابهم النقيب:

- ماكنش في داعي لحضوركم.. الموضوع كله كنت عايز اسمع شهادتها في موضوع بلاغ من المدام اللي مشيت قدامكم، وهي كده سحبت بلاغها يعني خلاص مافيش أي حاجة.
- ياريت حضرتك تدينا فكرة عن الموضوع علشان ممكن نرفع دعوة على المدام اللي سببت كل الإزعاج اللي حصل بدون داعي. احنا دلوقت في نص الليل، والجناح أُزعج والسفارة أخدت خبر..

لخص لهم النقيب ما حدث وأنهى حديثه بأن جاكلين غير متهمة بشيء ويمكنها الانصراف، واحتضنها والدها وهم بالانصراف معها، فأشارت إلى الشباب وأبلغته أنها كانت السبب وراء ما حدث لهم، فتوقف وسأل الضابط عن موقفهم حيث أكد له أن لهم الانصراف أيضاً مؤكداً أنهم إخوة وشباب يحرص على مستقبلهم مما تعجب له الثلاثي واتجهوا إلى الضابط يصافحونه بحرارة مصطنعة بينما وجه له سعيد نداء في قالب يغلب عليه التهريج:

- ربنا يخللي سعادتك انت والشرطة للشباب. فعلاً: الشرطة في خدمة الشعب.

انتهت فترة المعرض؛ تواصل الشباب خلالها بالسيدة/ سعاد، وقدمت لهم في بعض اللقاءات بالكافيتريا شخصيات كبيرة: وكيل وزارة الشئون الاجتماعية.. اللواء فلان.. السفير فلان..

وفي اليوم الأخير أعطت لكل منهم كارتا عليه اسمها وصفتها كرئيس جمعية خيرية ورقم تليفونها، وكتبت على أحدها عنوان منزلها بالسيدة/ زينب وطلبت منهم معاودة زيارتها كـ "بلديات" وأخوة..

واتفقوا على زيارتها واتصلوا بها لتحديد الموعد.. وفي منزلها، قصت عليهم معلوماتها عن نشاط جاكلين الهدام وأن الجمعية التي تدعيها هي ستار لذلك النشاط الذي ترصده الدولة.. راودهم الشك في البداية، وفسروا الكراهية الشديدة على أنها غيرة نسائية.. لكن توالى الأيام، أثبت لهم أنها شخصية جادة ومطلعة، فقد ترشحت لعضوية مجلس الأمة، ونجحت باكتساح واستمرت لعدة دورات، وحتى وفاتها عضواً نشطاً، لها تأثيراتها الشديدة في السياسة والمجتمع.

****

ديك البرابر

لم يكن جميل الطلعة، ولا كانت تقاطيعه تجذب النظر، كما كان نحيفاً بأكثر مما يمضي دون أن يلفت النظر إلى هذه النحافة، ورغم ذلك لم يحرمه الله من ملمح يميل بالصورة الكلية نحو الاعتدال، فقد وهبه عينان خضراوتان، مع بشرة برونزية فبدا كأهل الصومال الإيطالي.. وحكمت عليه الظروف ألا يكون وسيماً، فملابسه بالكامل هي ما ضاق على شقيقه الأكبر مرجان الذي سبقه إلى الحياة بأربعة أعوام، لكن فارق الطول بينهما ظل يتناقص حتى تساوى معه مسعود في الطول حين بلغ الخامسة عشرة وسبقه مرجان إلى التاسعة عشرة، فأصبح على الوالد أن يشتري لهما معاً الملابس الجديدة. لكن النحافة وعدم التناسق بين طول مسعود وامتلاء جسمه شكل عائقاً أمامه في ارتداء الملابس الجاهزة؛ فكانت نفس الملابس التي تبدو متناسقة على مرجان تظهر مساوئ تكوين مسعود الجسدي فهي إما فضفاضة، أو أنها قصيرة، لذلك كان دائماً ما يرتدي ملابس يتم تفصيلها، ولا ترقى في جاذبيتها إلى مستوى الملابس الجاهزة.

وكان الشقيقان مرجان ومسعود؛ الذكران الوحيدان فيمن أنجبت الأسرة فالأعمام والخالات والأخوال كلهم أنجبوا أعداداً متفاوتة من البنات، لذا اعتبرهما الجميع أبناءً لهم وأشقاء لبناتهم..

حين فاق مسعود شقيقه الأكبر طولاً، طرح على والده أن يتخلى عن ملابسه التي يستغنى عنها لشقيقه الأكبر، وفي نفسه أن يذيقه بعضاً من إحساسه الذي عاناه سنوات بارتداء ملابس مستعملة على طول الخط، لكن والده نهره بأن ما ينطبق على الكبير، لا يليق تطبيقه على الصغير، ورد مرجان على الإقتراح بأن ملابس مسعود تكون ضيقة عليه إذا تناسب طولها معه، أو طويلة إذا تناسب عرضها..

على أية حال، فقد مضت السنون، وبمثل ما فاق مسعود شقيقه طولاً، فاقه قراءة وتحصيلاً، وثقافة، وضاق الفاصل الدراسي بينهما إلى سنتين بعد ما رسب مرجان عامين دراسيين خلال دراسته.. كان مسعود إذا سمع مصطلحاً أو معنى جديداً على مسمعه، نقب في القواميس والمعاجم حتى يصل إلى أصله، وتفوق في اللغة الإنجليزية، وعشق حفظ الحكم والأمثال والتشبيهات والاستعارات وغاص في دراسة التاريخ والجغرافيا خارج حدود المقررات المدرسية، وقرأ لكبار الأدباء والكتاب العرب والأجانب حتى كان وهو في الثانوية العامة يدخل في مناقشات وجدل مع طلبة وخريجي الجامعات الذين كانوا يهابون مواجهته، ويحفظون له قدره..

تبدل حال الأسرة من بعد يسر، ضيقاً، وهكذا كانت طبائع التجارة، مهنة والده، وأصبح الحال واضحاً لكل ذي عينين، رغم كبرياء الوالد، ومحاولته إخفاء الحقائق عن أسرته بقدر ما يستطيع، لكن الحقيقة دائماً كالشمس يصعب إخفاؤها.. ولم تكن أمام مسعود بدائل للاختيار، فرأى ضرورة البحث عن وظيفة، يساعد دخلها على سير الحياة ومعاونة الأسرة على تحمل نفقات تعليم مرجان بالجامعة حيث كان قد دخلها في ظل بحبوحةٌ تضاءلت حتى تلاشت خلال العامين اللذين أمضاهما في الجامعة، ولم يكن من العدل حرمانه من استكمال عامين آخرين للحصول على مؤهل عالٍ.

أسفر البحث عن إعلان مصلحة التليفونات لتعيين عدد من الحاصلين على الثانوية العامة في مكاتبها التي تتلقى طلبات الجمهور لخدمات التليفون والتلغراف، فتقدم بطلب لشغل الوظيفة وتحدد موعد الاختبار التحريري الذي رآه سهلاً ميسوراً، رغم أن واضعيه تعمدوا أن يكون صعباً واختاروا أسئلته من مجالات متنوعة لتصفية أعداد المتقدمين التي تجاوزت عشرة أضعاف عدد المقرر تعيينهم..

ظهرت النتيجة وجاءت كما توقع فهو لم ينجح فحسب، وإنما كان ترتيبه الأول.. وفي المقابلة الشخصية كاد أن يتعرض للاستبعاد ولفقد فرصة التعيين لأنه

صحح السؤال الموجه إليه ولفت نظر عضو لجنة المقابلة إلى خطأ في السؤال، وصاغه في الشكل الصحيح مما أغضب العضو، ودفعه إلى توبيخ مسعود، لولا تدخل رئيس اللجنة وثنائه على مسعود وإقراره بما عدله وسحب استمارته من أمام العضو ووقع عليها بالموافقة على تعيينه..

حين تسلم مسعود العمل، اكتشف أن ثلاثة فقط هم من تسلموا العمل كدفعة أولى، وتردد أن باقي من تمت الموافقة على تعيينهم وعددهم تسعة قد لا يعينون قريباً بسبب تعليمات جديدة من وزارة المالية بالتعيين فقط للضرورة القصوى، وفي أضيق الحدود..

وتم إخطار مسعود ورفيقيه بتفرغهم لمدة أسابيع قادمة لتلقي دورة تدريبية عن أعمال التليفون والتلغراف ونظام احتساب المكالمات وعد كلمات البرقية وما إلى ذلك..

توجه مسعود إلى المكان المحدد له في خطاب إخطاره بالدورة، في التاريخ والساعة المحددتين، وتقدم إلى سكرتارية إدارة التدريب فتسلموا الخطاب ووجهوه إلى القاعة رقم (٤) في نفس الردهة، فخطا إليها وتأكد من الرقم المثبت على بابها الذي فتحه، وقبل أن يخطو ليعبره، أعاد غلقه بسرعة، وعاد إلى السكرتارية لمراجعتها، حيث أكدوا له صحة توجيههم له، وأن رقم القاعة صحيح، وأن المحاضرة الأولى ستبدأ خلال عشرة دقائق..

عاد إلى القاعة، وأعاد فتح الباب فرأى ما رده عنها في المرة الأولى، فأغمض عينيه، ثم خطا إلى داخل القاعة الفسيحة، وأعاد فتح عينيه، ليتأكد من حقيقة ما يرى، ورأى عشرات من الفتيات، ليس بينهن رجل واحد، في عرض للأزياء، ومستحضرات التجميل، وسمع أصواتاً متداخلة ولدت كلها في نفس لحظة وجوده، فاستجمع شجاعته، وازدرد لعابه، وسأل أولاهن جلوساً في الصف الذي يضم ستة كراسي محاضرات عن اسم الدورة فأكدت له أنها الدورة التي يقصدها..

وتعجب من شأن هذه الدورة (الحريمي) وملابسات وجوده ضمنها، وطوى الممر بين المقاعد حتى نهاية الصفوف، وجلس على مقعد في الصف الأخير بفاصل ثلاثة صفوف لا تجلس في إحداها واحدة.. وبعد دقائق فتح الباب ورأى رأساً ذكورية تطل وكادت تنسحب كما فعل هو، فنادى بسرعة:

- عباس.. تعالى..

وتفحص عباس المكان بحثاً عن الصوت الذي ناداه حتى وقع بصره على مسعود في آخر الصفوف.. فتقدم إليه حيث جلس إلى جواره، ولم يكونا قد تعارفا بعد إلا على الأسماء الأولى.. نظر كل منهما إلى الآخر في دهشة وصمت للحظة ثم تساءلا في نفس اللحظة:

- هو فيه إيه ؟!

وضحكا، وبينما انتظرا زميلهما الثالث تجاذبا حديثا قصيرا وتعارفا في اختصار، حتى دخل أول المحاضرين، وأغلق القاعة.. وبدأ الضجيج يتناقص حتى ساد الصمت والترقب..

وكتب المحاضر اسم المحاضرة وعناصرها على السبورة وقدم نفسه كمهندس ومدير عام بالمصلحة، وبدأ يلقي محاضرته، ثم توقف فجأة ووجه حديثه إلى مسعود وعباس متسائلاً:

- الشباب اللي ورا دول معانا في البرنامج؟

وأجابا في نفس الوقت:

- أيوه يا افندم نفس الدورة.

فتساءل من جديد:

- وقاعدين ورا خالص كده ليه، وسايبين صفوف فاضية؟ اتقدموا قدام وانضموا للصفوف اللي قدامكم..

وتقدما حيث جلسا في أول صف تال لصفوف البنات في خجل ووجل حيث كان مسعود على وجه الخصوص خجولاً يحمر وجهه لمجرد مواجهة فتاة، أما محادثتها فكانت في الغالب تحبس صوته، وتلجلج لسانه.

وبعد أن انتهى المحاضر من محاضرته.. سأل الحضور:

- فهمتم المحاضرة؟

وأجاب الحضور بصوت مسموع:

- أيوه!!

- يعني أسألكم؟

أجاب الجميع بفورية وثقة:

- أيوه.

ووجه المحاضر سؤالاً غير مباشر لما ألقاه في المحاضرة، ولكن إجابته تعتبر استظهاراً لمضمونه ولم يرفع أحد يده للإجابة، وتساءل المحاضر عما إذا كان الجميع فاهمون أم أن جميعهم غائبون أم نائمون، ولم يجب أحد، وغضب المحاضر وعنفهم وأخطرهم بقراره أن يختار هو من بينهم من يجيب عن سؤاله وأشار إلى إحدى البنات الحاضرات قائلاً:

- إنتي يا آنسة.

ولما لم تتجاوب الآنسة التي قصدها وأشار إليها، ارتفعت نبرة صوته قليلاً وحددها بصورة لا تقبل التجاهل أو (الاستعباط):

- انت ياللي لابسة بلوزة كحلي وحاطة على راسك "توكة شعر" اللي جنب اللي لابسة فستان منقوش بورد بمبي..

وقفت الآنسة ولم تنبس ببنت شفة، وحاول المحاضر استنطاقها وتسهيل الأمر عليها ملقيا ببعض الضوء على السؤال حتى كاد أن ينطق بالإجابة، لكن

ذلك لم يقرب الأمر إلى ذهنها، فأمرها بالجلوس، ثم أشار إلى فتاة ثانية، فثالثة، لكن الأمر لم يختلف، واستاء المحاضر، وأشار إلى آخر الصفوف متسائلاً:

- ويا ترى الصف الأخير في حد ربنا حايفتح عليه بحاجة يقولها لنا ولا هي.. هي؟

ورفع مسعود يده، وقبل أن يكمل رفعها وبمجرد بروزها فوق مستوى الرءوس شجعه المحاضر الذي ارتسم على وجهه بصيص أمل وطلب منه الإجابة، ووقف مسعود وبدأ في الإجابة على استحياء في البداية، ثم انفكت عقدة لسانه، ومع إيماءات المحاضر المتكررة برأسه موافقة وتشجيعاً لمسعود، انطلق لسانه في محاضرة جديدة وانسابت المعلومات مما قاله المحاضر ومما لم يقله، ولم يستوقفه المحاضر؛ بل شجعه في الاسترسال بعبارات تنم عن الرضا مثل: "تمام.. الله ينور عليك.. أيوه كده حد يفتح نفسنا" إلى أن انتهى مسعود بتلخيص المعاني في حكمة متداولة ثم جلس.. وعقب المحاضر:

- اللي سمعناه ده مش بس بيأكد إن الزميل صاحي ومتابع ومستوعب للمحاضرة لكن بيقول إنه مثقف وعنده خلفية ووعي عالي جداً، وبدأ كلامه بروعة الاستهلال وأنهاه بتلخيص معبر ووافي. أنا بشكرك يا.. وسأله عن اسمه:

- انت اسمك إيه؟

- اسمي مسعود عبد الرافع.

- الله ينور عليك وأتمنى أن زملاءك يستفيدوا من وجودك معاهم في الدورة..

في الفاصل بين المحاضرتين، اتجهت أنظار الجميع إلى مسعود الذي أخفى خجله بالتشاغل في الحديث مع الذكر الوحيد في المحاضرة؛ عباس، واندمج في موضوعات لا تستحق كل ذلك الاهتمام والتركيز الذي بديا على ملامحه، وإشارات يده، مما أربك عباس وبدا صامتاً متلقياً للحديث فحسب، وبدخول المحاضر الثاني صمت مسعود، وصمتت الفتيات التي جمع كل اثنتين أو ثلاثة منهن حديث لم

يستوضح منه أحد شيئاً لتداخل الأصوات وارتفاع نبرتها.. وبدأ المحاضر يلقي محاضرته بأسلوب مختلف فكان يشرح نقطة ما في عدة عبارات ينهي الأخيرة منها قبل أن تكتمل، ويشير بفجائية إلى من يحدد بسبابته لكي يكمل الجملة.. لكن أحداً لم يكمل حتى حين كان يشير للمتعثرة بالجلوس، ويشير إلى أخرى للإجابة، كانت تقف بلا كلمة تصدر عنها، أو تتلجلج، أو تجيب التالية لها بإجابة خاطئة.

وحين يتأزم الموقف، وتبدو علامات العصبية على المُحاضر، والإحباط على الحاضرات يرفع مسعود يده، فيستنجد به المحاضر في اختبار أخير لمدى نجاحه في توصيل المعلومات أو تحديد لموقع القصور؛ هل هو في أدائه أم في تدني مستوى الحاضرين، ويفرد كفه في اتجاهه مشيراً بها من أسفل إلى أعلا بما يشير إلى مسعود بالقيام والإجابة فيقف، وقبل أن يستكمل الوقوف يبدأ في سرد إجابة شافية دون أن ينسى إضافة جديد من عندياته إلى ما ذكره المحاضر.

ويلقي مسعود ثناءً بأكثر مما تلقى في المحاضرة السابقة... وانتهى اليوم الدراسي، ورغم جرعات الثقة العالية التي حظي بها، يغادر مسعود قاعة المحاضرات وساقاه تلتفان حول بعضهما، وباندماج جديد في حديث آخر مع عباس، وعند محطة الأتوبيس القريبة يفترق الزميلان، بينما ثار سؤال مؤرق في خاطر مسعود:

- ماذا لو أن عباس تخلف هو الآخر مثل زميلهم الثالث؟ من أين له أن يأتي بمن يمتص جرعات الخجل والحرج التي تنتابه وسط كل تلك المظاهرة الحاشدة من البنات؟

ومضى إلى بيته راضياً مسترجعاً لتفاصيل اليوم الذي لم يرد إلى خاطره أو خياله أن يعيشه وأمضى وقته في المساء وجزء من الليل في القراءة لما توقع أن تمسه محاضرات اليوم التالي وراجع بعض المصطلحات باللغة الإنجليزية استعداداً لتطعيم إجاباته بها في تطوير لأدائه وأحس بشعور ملاكم توجس من لقاءات

خصومه في البطولة، فلما أحس فوزاً يفوق توقعاته للمباراة الأولى، قرر ألا يكتفي بالفوز وإنما بتحقيق الضربات القاضية.

في اليوم التالي كان لمسعود ما أراد، وزوده شعوره بالتفوق على كل الحاضرات وعلى زميله عباس بجرعات من الثقة والثبات وتناقص خجله عند محادثه إحدى البنات له حيث بدأت بعضهن خلال فترة الراحة بين المحاضرات في اصطناع استفسار أو سؤال حول بعض مما دار خلال المحاضرة، فكان يجيب في يسر وبساطة دون تعالٍ رغم إحساسه بالتفوق الشديد، والفارق الكبير في المستوى الثقافي، شجعه في ذلك المحاضرون الذين تعاملوا معه باحترام كبير، وحذر من الدخول في مجال للاختلاف.

لكن اليوم الثالث كان مختلفاً وفارقاً، كان انطلاقاً من مشاعر حقبة زمنية منغلقة يلفها الخجل والانزواء بما تمثله فترة مراهقة لإبن من أبناء الطبقة الوسطى الدنيا، لم يتعامل مع فتاة من خارج دائرة الأهل والأقارب، ولا يعرف كيف يبدأ الحديث مع إحداهن ولا كيف يطوره إذا جاءت ببدايته الظروف، إلى مشاعر شاب واثق من نفسه موقن من رغبة كثيرات في مبادأته بالحديث، وإهدائه بفتح مجالات الحوار والتطور في موضوعاته.

كان اليوم كاملاً مخصصاً للمفتشة العامة على البنات العاملات على السويتش لكل سنترالات الجمهورية، كانت آنسة – رغم تقدمها في السن – وكانت حازمة تبتسم لضرورة وبحساب. كانت البنات ترتعدن وتتوجسن خيفة في التعامل معها، ظهر ذلك حين دخلت إلى قاعة المحاضرات، فاحتبس الصوت فجأة في حلوق البنات، واتجهن بأبصارهن وانتباههن صوب المفتشة، بل لقد لاحظ الشابان أنهن ارتدين في ذلك اليوم ملابس أكثر حشمة وتحفظاً، وتصرفن بدرجة من الوقار وبعضاً من الرهبة..

تكلمت المفتشة في موضوعات فنية تخص تلقي طلبات السنترالات بتحقيق اتصال من طالب خدمة الترنك بأرقام تليفونات تتبع سنترالات أخرى وأسلوب احتساب مدد المكالمات.. إلى غير ذلك مما تعرفه البنات جيداً حيث خدمن بالسنترالات عدة شهور قبل أن يتقرر حضورهن لهذه الدورة.. ثم انتقلت المفتشة بصورة فجائية إلى موضوعات عامة تخص المجتمع المصري في تلك الفترة التي شغل فيها بأكثر مشروع قومي شهدته البلاد، فتحدثت عن السد العالي، وأفاضت في شرح أهدافه وفوائده وكذلك تحدثت عن بعض الأرقام الخاصة بعمليات الحفر وتفجير الصخور ونقل الركام وعن جسم السد ومواصفاته والتوربينات التي ستولد الكهرباء.. إلى آخر ما يخص السد من معلومات، ثم عرجت على ذكر المعوقات لإقامة المشروع والتي كان أهمها الموقف الأمريكي وما كان من سحب البنك الدولي لعرض تمويل المشروع ورد جمال عبد الناصر على ذلك بتأميم قناة السويس. ثم توقفت فجأة عند ذكر القناة، وتساءلت:

- تعرفوا إيه عن قناة السويس؟

صمت الجميع، وكأنها تسأل سائق تاكسي عن القناة المرارية، أو قناة فالوب.

كررت السؤال مرتين، ولم يتغير موقف الحضور، ولم يبادر أحد بمحاولة للإجابة، فأبدت دهشة وتساءلت متعجبة ومستنكرة:

- معنى كده إنه مفيش حد عارف أي حاجة عن القناة؟ دي كارثة تخليني اسألكم مين يعرف أي حاجة ف أي حاجة؟ دا كده جهل مطبق، وشيء يحزن.

رفع مسعود يده، ومضت لحظات قبل أن تلمحه المفتشة، وتشير إليه موجهة:

- طيب قوم انت يا سيدي، وقولنا الأول حاتكلمنا عن إيه في موضوع تعرفه.

وأجابها مسعود في ثقة وتحد رغم الكلمات المهذبة اللائقة التي توحي بثقة متواضعة:

- أنا حاتكلم في الموضوع اللي حضرتك حددتيه؛ عن قناة السويس.

وعلقت بريبة يشوبها بعض من الارتياح:

- أخيراً.. طيب كويس قوي.. اتفضل.

وبدأ مسعود بمقدمة مذهلة عن تاريخ القناة من عهد الفراعنة حيث سميت بقناة سيزوستريس إلى فكرة قناة أمير المؤمنين إبان حقبة الفتح الإسلامي.. ثم فكرة فرديناندليسبس التي عرضها على صديقه سعيد باشا والي مصر ثم..

وقاطعته المفتشة بإعجاب واضح:

- لأ استنى.. تعالى هنا قدام علشان البنات إتْحَولوا من البص ورا.. والموضوع واضح إنه حايطول..

وتقدم مسعود حتى وصل إلى جوار المفتشة، وواجه الآنسات لأول مرة، وأصبح – وحيداً – محط أنظارهن جميعاً، وقبل أن يواصل (محاضرته) طلبت منه المفتشة أن يقدم نفسه قبل أن يستطرد، فاستأنف حديثه بتقديم نفسه للمرة الثانية، ولكن مع بعض التفصيل:

- مسعود عبد الرافع.. زميلكم المعين حديثاً في المصلحة.. ثانوية عامة ومنتسب لكلية الحقوق.

ثم وصل من الحديث ما انقطع فشرح كل ما يخص القناة من موقعها الجغرافي، وعندها أمسك بالطباشير حيث رسم خريطة توضح منطقتها على السبورة وأوضح المدن الثلاثة عند بدايتها ومنتصفها ونهايتها، وأوضح طولها وفائدتها في اختصار مسافة سير السفن بين آسيا والخليج العربي وبين أوروبا الغربية وقارنها بما كانت السفن تعانيه في سلوكها لطريق رأس الرجاء الصالح، كما شرح سيطرة بريطانيا وفرنسا على القناة واستحواذهما على إدارتها ومواردها..

وأوضح ما تكبدته مصر من الأرواح في حفرها، وكما بدأ أنهي محاضرته بتحقيق جمال عبد الناصر عندما أمم القناة لأمنية مصطفى كامل بأن تكون القناة لمصر، لا مصر للقناة..

وصفقت المفتشة العامة بحماس واستمرار شجع الآنسات الحاضرات على التصفيق الذي استمر، ومع استمراره تزايد استعاراً ولهيباً مما أوحي إليه بأنه هو الذي أمم القناة. وشكر مسعود للجميع تقديرهم وهم بالعودة إلى مقعده، فاستوقفته المفتشة وطلبت منه أن يجلس على كرسي مجاور لمقعدها كمساعد للمحاضر وحين جلس إلى جوارها تحاورت معه حول بعض التفاصيل فانساب يضيف إلى ما قدم أضعافاً، وطعم حديثه ببعض الطرائف والمعلومات التفصيلية عن الشخصيات التاريخية المرتبطة بتاريخ القناة فتحدث عن سعيد وعن ديلسبس، وعن الخديوي إسماعيل الذي افتتحت القناة في عهده في العام ١٨٦٩ والحفل الأسطوري الذي أقامه بالمناسبة ورصف طريق السويس – القاهرة وبناء الأوبرا وتقديم أوبرا عايدة.. والإمبراطورة أوجيني.. وبناء القصور والكباري والنهضة التي واكبت تلك الحقبة، وعرض أن يكمل في لقاء آخر ما ترتب على تلك النفقات من ديون.. وتطور التدخل الأجنبي.. ولجنة ملنر..

واتسعت عينا المفتشة وارتسمت على ملامحها علامات التقدير والإعجاب والدهشة ولم تملك السيطرة على تعبيرات إطرائها حيث توجهت إلى مسعود قائلة:

– يا أخ مسعود. انت أكثر من رائع.. ثقافتك ومعلوماتك، وتواضعك في البداية بتركك الفرصة لغيرك للإجابة، والاحتفاظ بمعلوماتك الرائعة لغاية ما يبدو أن الجميع مش عارف ويتأزم الموقف فتتقدم لإنقاذه.. كل ده يجدد الأمل إن الجيل ده فيه عناصر تقدر تشيل.. وترفع البلد.. ولما يكون فيه واحد زيك، في وسط ماية مش عارفين، ممكن يكون منارة تكفي إنهم ينهلوا من نورها ويصبحوا كلهم

متنورين.. يا أخ مسعود. أنا منبهرة بالعرض اللي انت عرضته ولازم اسقف لك تاني، واطلب من البنات يسقفولك تاني..

وصفقت المفتشة.. وصفقت الحاضرات بحرارة،.. ووقف مسعود وانحنى معبراً عن شكره واقترب بكفه من صدره مرتين تعبيراً عن الامتنان، ثم رفع يداه إلى أعلى من رأسه، يشكر الجميع.

من لحظتها تحول مسعود إلى فارس.. اقتربت منه كل بنات الدورة ولكل منهن حجة أو ذريعة للاقتراب، فهذه هند تفتح أجندة وتمسك بقلم، وتطلب من مسعود أن يملي عليها بعض البيانات والأرقام التي جاءت في محاضرته، وهذه عبير تستأذنه في أن تقدم له في اليوم التالي محاولتها لكتابة قصة لكي يقرأها ويعلق عليها في نقد تقبله مهما كان قاسياً، على أن يوجهها للتصحيحات اللازمة..

وتلك نهاد تسأله بصورة مباشرة عن رقم تليفونه أو تليفون العمل حيث ترغب في الاتصال به لسؤاله عن أمر لا يتسع المجال للحديث فيه خلال البرنامج التدريبي.. لم تكن واحدة ولا اثنتين ولا ثلاثة هن من بدأن الحديث.. وإنما عشرات، منهن من قدمن بداية خيط، ومنهن من امتدحن ثقافته وتطورت في المديح إلى غزل مباشر على مرأى ومسمع من الجميع.

ويبدو أن تهافت البعض على بدء علاقة – أيا ما كان نوعها – مع مسعود دفع الأخريات إلى اندفاع ملحوظ في اتجاهه، وانقلبت فترات الراحة أو الفترة السابقة على المحاضرات إلى مؤتمرات صحفية، توجه الفتيات عشرات الأسئلة لمسعود.. ويزددن تقرباً منه..

ومع مضي الأيام، وعلى مدى الأسبوعين المحددين للدورة، تطورت علاقة مسعود بالجميع، وإن اختلفت درجات الخصوصية مع البعض، وأصاب عباس بعضاً من الفائض عن حاجة مسعود بتشجيع منه وبمساعدة لعباس، في همسه إليه بإجابات لبعض الأسئلة بدلاً من أن يستأثر هو بإجابتها جميعاً.. ووصل

الأمر إلى أن طلبت بعضهن منه التوسط لدى المفتشة العامة في رفع أو تخفيف جزاء تم توقيعه عليهن ثقة في موقعه المنيع لدى المفتشة.

وجاء اليوم النهائي للدورة في يوم مفتوح في حضور كل المحاضرين معاً في نفس اليوم وجرى تقييم للدورة تلخص في تكريم جماعي من المحاضِرين، والمحاضَرين لمسعود وإشادة بمستواه المتفرد، وتوقعات له بالتقدم السريع في كل المجالات وتحقيق مستقبل باهر، وطلب منه الجميع تعقيباً يتضمن تقييماً للدورة وبرنامجها، ومقترحاته لتطوير ذلك البرنامج حتى يحقق فوائداً أعم، وإضافة أكثر.. ووقف مسعود فوجه الشكر للمحاضرين، وحلل البرنامج في إيجاز غير مخل بل أوجز فأنجز ولم تفته فرصة تحقيق مرامه في كسب علاقة بالجميع في شياكة مباشرة لكنها مغلفة بنبل الهدف وارتقاء المقصد، فأنهى حديثه قائلاً:

- وأنا أضيف إلى الأهداف المحققة هدفاً وظيفياً واجتماعياً رائعاً هو تحقيق التعارف المتبادل بين الحضور وبين محاضريهم فهم من كبار المسئولين في المصلحة، ولابد من نشوء حاجة للجوء إليهم فيما يعن لنا من تساؤلات أو احتياج للاستنارة بتوجيهاتهم، وكذلك ما تحقق من معرفة بعضنا البعض، والتعرف على مواقع عملنا ما يعود علينا جميعاً من كسب علاقات وظيفية بكثير من الإدارات والأقسام مما يحقق مزيداً من المعرفة لنا، وإضافة إلى العلاقات الوظيفية المفيدة التي تيسر سير العمل لنا بما ينعكس على صالح الهيئة وأتمنى عقد مزيد من الدورات المطورة مستقبلاً.

وانصرف المحاضرون، وتجمعت الحاضرات حول مسعود يتبادلن معه أرقام التليفونات، ووصف لمواقع العمل، ووعود متبادلة بالتواصل وانتهت الدورة بعكس ما بدأت، فقد مضى واثق الخطوة يمشي ملكاً بالحياء المستحب وبلا خجل ممقوت.

أم حلاوتهم

(١)

الحارة؛ ضيقة وطويلة إلى حد ما، تحوي أكثر من ثلاثين بيتاً، ارتفاع كل منها ثلاثة طوابق في المتوسط، تتفرع عند أحد طرفيها من شارع متسع نسبياً، تسير فيه وسائل المواصلات ومعظمها عربات الحنطور، والكارو التي تجرها الدواب، وأقلها السيارات المملوكة لعلية القوم الذين لا يسكن أحدهم – بطبيعة الحال – في الحارة التي تنتهي عند طرفها الآخر بمكان فسيح نتيجة لانتهاء صف البيوت التي يفصلها عن الحارة المجاورة فتكون متسعة بقدر اتساع الحارتين، وما بينهما من بيوت..

والحارة في العادة هادئة هدوءاً يصل إلى ذروته في الشتاء، فالجميع في العمل أو المدارس نهاراً، قابعون في منازلهم للاستذكار أو أداء ما يشغلهم مطلع الليل، ثم هم نائمون مبكرون، حيث لا تليفزيون ولا كمبيوتر في ذلك الزمن من مطلع الخمسينيات، وحتى ساعات الإرسال الإذاعية قليلة والإضاءة تبعث على النوم؛ فاللمبات الكهربائية قليلة وضعيفة.. أما في الصيف فالصورة مختلفة، يتجمع الأولاد والشباب في مجموعات تؤدي أنشطة تمتد من الصباح وحتى ساعات متأخرة من الليل، فهذه مجموعة تقسم نفسها إلى فريقين يتنافسان في كرة القدم أو الهوكي، وهذه مجموعة تلعب إحدى لعبات الشقاوة واللياقة فيما كانوا يسمونه "السبع طوبات" أو "صياد وحمام" وغيرها.. وحين يُمسي الليل، تكون السينما الصيفية، أو دوائر تحت أعمدة الإنارة الخجولة تتحدث في كل شيء ولأوقات طويلة لا يصيبها الملل، أو لا تشعر به إلى حين يهتف أحدهم:

– إحنا حانقف كده للصبح؟ ياللا نمشي ف شارع البحر..

وتلقى الفكرة استحساناً فيتحركون على الفور، أو يؤجلون التحرك لبعض الوقت بناء على طلب أحدهم حتى يستبدل الشبشب بحذاء، أو يعدل من مظهره بما يليق بسياحة تبعده عن منزله. وتتحرك "الشلة" في مجموعة واحدة إذا كانت قليلة العدد، أو مجموعتين أو أكثر إذا ازداد العدد، وكانت كل مجموعة تضم العدد الأكثر تآلفاً ممن تتقارب أهواؤهم، وتنسجم أمزجتهم فينطلقون ساعات قد تقودهم إلى الطريق السريع خارج المدينة، وفي طريق عودتهم يستريحون قليلاً في شارع البحر فيجلسون على المقاعد أو النجيلة في الجزيرة الوسطى، يسليهم الترمس، أو اللب والسوداني، الذي كانت مليمات خمسة كافية لتوفير أي منهما بكمية تستهلك وقتاً طويلاً.

كان معظمهم بريئا في لهوه، شريفاً في مقاصده، وكانت الرياضة عشق كثيرين منهم وخاصة ما كان يستهوي المراهقين مثل الملاكمة، وكمال الأجسام، ورفع الأثقال، فكانوا يستشعرون في تجمعهم قوة خيرة يستخدمونها عادة في حراسة الفضيلة؛ بمعنى أنهم كانوا يلاحقون المتحرشين بالفتيات – وخاصة إذا كن من بنات حيهم – ويوسعونهم ضرباً، وينتقمون ممن يتجبر على الضعفاء مثل مسعود "الجبار"؛ الجزار الشرس الذي اشتهر بهواية تهديد والاعتداء على المستضعفين والأطفال الذين يلعبون بالكرة "الشراب" أمام محله، أو أم سميحة سليطة اللسان التي كانت تخشاها نساء الحي وشبابه، ويتلاشونها ويبتعدون عن طريقها.

رغم أن معظمهم كانوا في سني المراهقة العاتية، إلا أنهم كانوا متعففون (في الغالب) يغضون الأبصار رغم تفاعل عوامل الرغبة، وقسوة دوافع الغريزة. لكن حالتين اثنتين كانتا تشكلان استثناءاً يتخطون فيها الحواجز الأخلاقية ويسمحون لأنفسهم خلالها بفسحة يروحون فيها عن أنفسهم:

الأولى؛ حين يتصادف توقيت ومكان تحركهم مع مرور بنات أبو النجا، والثانية هي وجود "الدكتورة" في المدينة وتوافق مسارها مع حركة موكبهم، حيث

كانوا يمعنون النظر، ويطلقون لخيالاتهم العنان فيسيل لعابهم وتتسع حدقات عيونهم، وتتدلى ألسنتهم ويتبادلون – فيما بينهم – تعليقات تشي بالرغبة..

أما عن بنات أبو النجا فكن خمسة؛ كبراهن في العشرين، وصغراهن في السادسة عشرة. رحلت أمهن منذ زمن قريب فاتشحن بالسواد حداداً عليها؛ جيبات ضيقات نهايتها فوق الركبة وتظهر من تحتها سيقان مصقولة، بيضاء تنتهي بأحذية ذات كعوب عالية تبرز مع السير أنوثة ودلالاً.. وأعلاها بلوزات دون أكمام تكشف عن أذرع منسابة بيضاء تتشرب بحمرة وفتحات متسعة من الصدر إلى العنق الذي يحمل رأساً تعبر عن مقاييس الجمال والكمال، خصلات منسابة من الشعر الكستنائي، تقاطيع منمنمة، عيون متسعة، وشفاه ممتلئة.. من بعد تنجذب الأنظار نحو خمسة نماذج متماثلة الطول، ونفور الصدر، وضيق الخصر.. خمسة تحف متلاصقة دون أخطاء.. تبارك من خلقها، وجمعها في أسرة واحدة، لقد أصبح أبو النجا الساعاتي أشهر رجل في المدينة بفضل انتساب بناته له.. وكانت أنظار الرجال والشباب والمراهقين تنجذب في اتجاه كتلة الجمال المركز خلال الجولة اليومية ما بين العصر والمغرب في الشوارع الرئيسية بالمدينة، أما أصحاب المحال؛ فكانوا يضبطون ساعاتهم على موعد مرورهن. وعلى كل حال فكن في سيرهن معاً للعرض فقط، ومحظور اللمس والاقتراب..

أما الحالة الثانية؛ "الدكتورة" فكانت حكايتها حكاية، امرأة تتفجر أنوثة من شعرها إلى إخمص قدمها، مطابقة للكتالوج، مقاييس لم يعرفها الرجال حتى على شاشات السينما، فمقارنة أي نجمة إغراء بها ظلم بين للنجمة؛ وجهها نموذج لجمال طاغ ملؤه النداء، شعار ملامحها التحدي والاستفزاز حتى للمشاعر الخامدة، والأحاسيس البليدة، كانت ملابسها متفردة في مستواها فضلاً عن أناقتها؛ في الصيف؛ حرير شفاف هفهاف، مجوهرات وإكسسوارات ثمينة وملفتة وتسريحات تفوق مستوى المدينة وإمكانياتها حيث لا تحتمل المدينة وجود مصففين على هذا

المستوى، وفي الشتاء فراء المنك والملابس الصوفية من الماركات العالمية (Signeé).. والأحذية التي تضيف إلى طولها الملفت سنتيمترات عديدة.

لم يكن أحد – على الأقل ممن يعرفهم جلال – يعرف شيئاً عن الدكتورة إلا أن هذا الاسم هو كنيتها، وليست وظيفتها..

ومع الأيام، ومع تباعد تكرار الصدفة التي تجمعها والمجموعة في طريق واحد، تضاعف الفضول لمعرفة شيء عنها، حتى إذا كانت أمسية؛ صادف جلال وصحبه المرأة القنبلة – كما كانوا يطلقون عليها – ولاحظوا ملاحقة رجلين في الأربعينيات لها، فاقتربوا منهم، وكاد الاحتكاك بهما أن يشعل معركة بين الفريقين، حين سأل أحد الرجلين:

– انتوا تاعبين نفسكوا ليه يا شباب. انتوا مش عارفين إنكم مش واخدين منها حاجة؟

ورد أحد أفراد الشلة في عنترية يعرف هو نفسه أنها عنترية:

– وانتم اللي حاتاخدوا؟ بأمارة إيه إن شاء الله؟؟

ورد الرجل في هدوء:

– الحكاية مش احنا ولا انتم. الدكتورة مش هاوية، دي بتاخد فلوس.

– بتاخد فلوس عشان إيه؟

ضحك الرجل وزميله ثم استدرك بسرعة خشية أن يفسر الشباب ضحكهما على أنه استهزاء بهم:

– معلش يا شباب انتو سنكم صغير وانتم آخركم بنات مدارس تحبوا بعض والست دي مش سكتكم.

كان جلال يتابع المناقشة، ويتألم لأنه ما زال في الخامسة عشرة، وكان منذ رآها أول مرة يحلم بها كثيرا حتى أضحت ضيفة دائمة على أحلامه، وكم تمنى أن يتحقق الحلم ولو مرة، كان يعرف أنها امرأة مكتملة يقترب سنها من ضعف سنه،

وهو بلا إمكانيات فمصروفه اليومي يتراوح بين خمسة مليمات وعشرة مليمات، وفي العيد يمنح عيدية قدرها خمسة قروش وهي تكاد لا تمكنه من دعوتها إلى كأس من العصير في أكثر الأماكن تواضعاً – لكن حب الاستطلاع زوده بشحنة من البجاحة لكي يقترب من الرجل ويسأله سؤالاً فجاً مباشراً:

– يعني بتاخد كام؟

ولا يستنكر الرجل سؤاله، فيجيب، ربما للتعجيز، وربما للاستعراض:

– خمسة جنيه. عارف يعني إيه خمسة جنيه؟

لم يرد جلال، ولم يكمل السير، والتف بينما أمسك بيدي رفيقين من الشلة وسار بهما في الاتجاه العكسي، بينما لحقت بهم باقي الشلة مع سؤال في محاولة للفهم:

– إيه يا اخواننا رجعتم ليه؟

ويرد جلال في حسرة:

– راجعين ليه؟ قول وحاتكملوا ليه؟ معاك خمسة جنيه؟ مصروف سنة بالعيديات وزيادة شوية؟ خلينا ف أولاد أبو النجا عشان دول للعرض فقط.

(٢)

حافظت الحارة على هدوئها، ومع مضي الزمن، تقارب سكانها، وسادت بينهم مودة جمعتهم كأهل وأقارب. كان بعضهم يضع على أرضية الحارة الممهدة والمرصوفة بقوالب البازلت الأسود سجادة، أو حصيرة، وربما بعض المساند والشلت ويقضون سهرتهم عليها في ستر الإضاءة القريبة من درجة الإظلام، يتناولون عشاءهم، ويصنعون الشاي، وربما استخدموا في صنعه منقداً وبه فحم أو "قوالح" الذرة وحين يتوهج يستخدمه كبير الأسرة في "الجوزة" لتدخين المعسل، وحين تتقارب "فرشة" أسرتين فيتمازحان ويتبادلان الحديث والسمر ويستحلف أحدهم أفراد الأسرة المجاورة أن يتذوقوا ما صنعت يدا أم فلان، وترد الأسرة على هذا الكرم بصب

الشاي للجميع، ويفارقهم الأبناء، ثم ما يلبث أحدهم أن يتردد على أسرته طالباً "ساندويتش" أو كوباً من الشاي، أو قليلاً من الترمس والحلبة التي لا تخلو منهما البيوت...

وهكذا سارت الحياة سيرها الهادئ الناعم، حتى حين كان خلاف ما يؤدي إلى شجار أو قطيعة بين أسرتين، لم تكن باقي الأسر تهدأ حتى تعقد الصلح وتدعو الطرفين إلى "عيش وملح"، أو كوب من الشاي، وتستأنف الحياة مسارها.

وفي يوم؛ جاءت سيارة نقل شكَّل دخولها الصعب إلى الحارة الضيقة معضلة، ولفت ذلك أنظار السكان الذين أطلوا من النوافذ والشرفات، أو وقف بعضهم يوجه السائق، أو ينبهه إلى أن السيارة تكاد تمر فوق غطاء ترانش من ترانشات الصرف، حتى توقفت السيارة أمام منزل عبد الحميد أفندي أبو العز؛ الموظف في المساحة، والذي يسكن عقاراً مستقلاً من طابقين يقال له في ذلك الوقت "بيت من بابه"، وحملت السيارة بالأثاث على أن تنقله إلى مدينة دمنهور؛ المدينة التي نقل عبد الحميد للعمل بها..

مضى أسبوعان قبل أن تدخل عربة كارو يجرها حصان إلى الحارة وعليها ما يمكن تجاوزاً أن يسمى أثاثاً، وضمن ما يحتويه أشياء لفتت الأنظار وإن لم يمكن التعرف عليها سوى بعض الدفوف. وشغل البيت سكان جدد، لم ينفتحوا على الجيران ولم يختلطوا بأحد منهم.

في مساء أحد أيام الثلاثاء شد السكان جميعاً، وفي لحظة مفاجئة صوت عدد من الدفوف والمزامير، وأصوات عالية لمنشدين غير مدربين ولا يكاد أحد يستوضح ما يرددون، وانطلق البعض يستفسر عما يحدث، ولاحظ الجميع حضور عدد من الوجوه الغريبة معظمهم من النساء.. ومع المتابعة، توصلوا إلى أن حفلاً للزار تقام في بيت السكان الجدد.. استمر الحفل إلى وقت متأخر من الليل، واحتمل السكان الضجيج؛ فالسكان الجدد جيران، لهم على جيرانهم حقوقاً، ويجب

عليهم المشاركة في تحمل ظروفهم، فلربما كان في الأسرة من يعاني عنت "الأسياد" فأشار عليهم الناصحون بعمل الزار لكي يعفو عنه العفريت أو العفاريت وتبرح جسده الذي تسكنه.

انتهى الزار في وقت متأخر من الليل ومضت أيام لم يعرف أحد من الجيران ما وراء ذلك الزار وإلا لانتشر الخبر وعرف الجميع السر، حتى إذا جاء الثلاثاء التالي تكرر الضجيج والدخول والخروج واستهوى الموضوع اهتمام الجميع، وركز جلال في تباين الألحان وتغيير الـ (تون) المفاجئ، ورصدت مجموعته المغادرين عند نهاية الحفل ولاحظ تردد بعضهم في أيام الثلاثاء التالية، واهتم الشباب بتحليل ملاحظاتهم حتى توصلوا إلى أن هذه الدار أصبحت مكاناً ثابتاً لإقامة الزار في كل أسبوع، وأن المترددين عليها ليسوا ضيوفاً في كل الأحوال، وإنما هم زبائن، ومن سؤال بعض المترددين لهم عن بيت أم حلاوتهم عرفوا أن هذا اسم صاحبة الدار، ويطلقون عليها الكودية؛ وهي التي تنظم الإجراءات وتقوم بدور الوسيط بين المريض وبين العفاريت الذين يحددون طلباتهم للجلاء فمنهم من يطلب ذبح خروف "لم يدخل دنيا" أو "ديك هندي سركاسي" أو تركيبة من عند العطار، وطبعاً لا يتمكن المريض من الوصول بنفسه إلى طلبات العفريت المعقدة فتتقاضى أم حلاوتهم منه المال وتقوم هي بالمهمة وتحقق عائداً كبيراً قد يصل إلى كل المدفوع، إضافة لـ "حلاوتها" هي، وتقود هي فرقة العازفين والمنشدين فتحولهم من "دقة الجن الأحمر" إلى دقة شمهورش و"تبرطم" بألفاظ غيبية غير مفهومة وتعطي أوامراً للعفاريت بالانصراف، بينما تتمايل أجساد الحاضرين مع دقات الدفوف القوية القريبة من ألحان القبائل الإفريقية ويلتزم الرواد بتعليمات الكودية في ارتداء ملابس معينة، كما تأمرهم أحياناً بغمسها في دماء ذبيحة طلبها العفريت، ويمكن استبدال الملابس لأكثر من مرة طبقاً لطلبات الأسياد..

تسربت تفاصيل كثيرة وتلصص الشباب كثيراً من خلال شراعة شباك زجاجها مكسور، وأصبحت الحارة تعيش حالة من الصخب والحركة الغريبة كل ثلاثاء، وأخلى الشباب برنامجهم في هذا اليوم من كل أسبوع للمتابعة ومعرفة المزيد عن عالم الجن والعفاريت وحكايات أم حلاوتهم.

انحصرت شواغل جلال في أنشطة الشلة ومشاركته لهم فيها، وتفرغ يوم الثلاثاء لمتابعة الزار ومعرفة المزيد عنه، وأحلام النوم – واليقظة أحياناً – عن الدكتورة، تلك المرأة المشتهاة التي فجرت ميله للجنس وقادته إلى طريق الرغبة المتأججة.. وحين صارح أصدقاءه المقربين نصحوه بمزيد من ممارسة الرياضة، وكتابة خواطره مع استبعاد كل ما يتعلق بها، وقراءة الكتب.. ونصحه البعض بقراءة آيات من القرآن وتعاويذ معينة قبل النوم، لكن تطبيقه لكل ما أشاروا به لم يحركه خطوة عن الانشغال بها.. وكان أحدهم يسأله:

– فين هي، انت تعرف عنها حاجة؟ ساكنة فين؟ بتيجي امتى من مصر؟ ولا هي أصلاً بتروح مصر ولا ف أنهي داهية.

ويسأله آخر:

– وافرض إنك عرفت وقابلتها فعلا؛ حاتعمل إيه؟ انت فين ومعاك كام؟

ويختصر ثالث الموضوع في خلاصة لا يرى حلاً غيرها:

– انت يا ابني مش بتحلم بيها؟ (جو أون).. استمر لا حد يقدر يتدخل ولا حد ممكن يمنعك، ولا هي شخصياً..

ويضحك جلال بشيء من السخرية:

– احنا حانهزر بقى؟ في فرق بين الحلم والحقيقة، وعلى كل حال الحلم أول خطوة في اتجاه الحقيقة.

ويعلن صديقه:

– طيب ما هي رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، شوف بقى لو قدامك ألف ميل ممكن تقطعهم في كام سنة.. على كل حال يا جلال: طول البال يبلغ الأمل..

وتنتهي المناقشة بنصائح ومداعبات وربما سخرية لا يملك معها إلا المضي فيما هو فيه؛ الأحلام هي المتنفس، والممكن الوحيد.

(٣)

خلال مشاهدة الفيلم الثاني من ثلاثة أفلام كانت السينما الصيفية تعرضها، وتواظب المجموعة على مشاهدتها كل أسبوع في يوم الاثنين حيث تعرض الأفلام الجديدة، أحس جلال رغبة شديدة – وعلى غير العادة – بألا يستكمل "البروجرام" واستأذن من رفاقه فألحوا عليه مواصلة السهرة معهم حتى نهايتها، واستمر لبعض الوقت نزولاً على رجائهم، لكنه كرر الاستئذان في الانصراف، وفي النهاية أقنعوه باستكمال مشاهدة الفيلم الثاني حتى نهايته، والانصراف خلال الاستراحة..

طوى الطريق شارداً؛ ساعده على قطعه بقايا اللب الموجودة في جيبه حتى إذا وصل إلى الشارع الذي تتفرع منه الحارة التي يسكنها، وقبل أن يبلغ ناصيتها، رأى امرأة كأنها استنسخت من الدكتورة، تخرج من الحارة فتسير في الشارع الذي يمشي فيه بفاصل أمتار.. فرك عينيه، وأسرع الخطى، وأمعن النظر حتى تأكد أنها هي...

استمر في متابعتها، وسماع التعليقات التي لا تنقطع والتي أكدت له أنه ليس الوحيد الذي يهيم بها عشقاً، بل إنه لم ير من لا يعبر عن ذلك بصوت مسموع. انحرفت يسارا حتى أدركت شارع البحر فتذكر المشاهدة الأولى، واستمر في متابعتها حتى دخلت إلى أحد الشوارع الجانبية الهادئة والتي تكاد تخلو من المارة، ومرقت سيارة من جواره حتى وصلت إلى حيث تسير الدكتورة، وتوقفت السيارة وغادرها قائدها ومعه رجل آخر فاتجها إليها بانتفاضة مفاجئة وهمَّا بالإمساك بها،

فصرخت صرخة مدوية، ودون شعور، ودون فرصة لحساب العواقب، وجد جلال نفسه ينطلق في اتجاهها ويصيح بالرجلين:

- بتعملوا إيه يا حيوانات؟

وبدون حسابات أيضاً، وبرد الفعل الفوري، تركها الرجلان وانطلقا إلى السيارة التي ابتعدت في غمضة عين.

لم يصدق جلال الموقف الذي كان يعيشه ويراه بعينيه وأفرغ ما بصدره من هواء في زفرة أراحت أعصابه المشدودة، واقترب منها مُطَمْئناً:

- ماتخافيش.. حصل حاجة؟؟

نظرت إليه فوجدت فتى صغيراً، استغربت منه كل هذه الشهامة ورأت فيه رجولة تكفي ثلاثة رجال. ألم يتصدى وحده لرجلين ملئاً منه رعباً وفرا منه ذعراً؟ وما الذي أتى به في ذلك المكان المهجور؟

بلا شعور، احتضنته وشكرته وعبرت له عن إعجابها الشديد " بأجدع راجل قابلته في حياتها ". أسعده ذلك الإطراء وأحس بندية كاملة لها؛ هي أجمل وأكمل أنثى، وهو "أجدع راجل"..

استدارت إلى عكس اتجاهها وأمسكت بيده وسارا يتجاذبان الحديث:

- انت اسمك إيه؟
- جلال.
- أهلا يا جلال وأنا الدكتورة.
- عارف.
- عارف اسمي؟
- هو في حد مايعرفش اسمك؟
- اسمي إيه؟
- الدكتورة. بس مش عارف دا اسم ولا وظيفة؟

ضحكت من أعماقها في قهقهة مدوية وأجابت:

- الناس سموني كده.. ما اعرفش ليه؟ يمكن عشان باداويهم واريحهم؟ أنا اسمي الحقيقي: حلاوتهم!

نزل الاسم على سمعه كدفعة مياه باردة سقطت على رأسه في الشتاء، وتساءل مندهشاً:

- اسمك حلاوتهم؟
- آه ليه؟
- لا مفيش. أصله اسم على مسمى بصراحة. انتي حلاوتهم وحلاوتنا، وحلاوة الدنيا كلها.

انتشت رغم سماعها لأضعاف ذلك المديح من العشرات والمئات، فتساءلت في دلال:

- قد كده أنا حلوة ولا انت بتجامل؟
- دا أنا لو قلت قد كده ميت مرة أبقى ظالم ومش هديكي ربع حقك.
- مش قوي يا جلال علشان ما اتغرش في نفسي.
- لأ اتغري زي ما انت عايزة، أنا لا شفت زيك في الحقيقة، ولا حتى في السينما اللي أنا مدمنها وعارف كل ممثلات الإغراء وكلهم مايجوش فيكي حاجة. دا أنا حتى لما كنت باشوفك في الحلم ماكنتش باأقدر أشوف جمالك زي الحقيقة.
- استنى.. استنى، انت كنت بتحلم بيه؟
- يمكن كل يوم بس مش زي ما أنا شايفك.
- وتعرفني منين علشان تحلم بي؟
- أنا شفتك مرة من كام شهر في شارع البحر، ومن ساعتها وأنا باحلم أشوفك تاني، لغاية ما اتفاجئت وشفتك انهارده في شارع المليجي.
- يعني انت ساكن في شارع المليجي؟

- آه.. وكنت ماشي ورايا قاصد، مش صدفة؟
- دا حقيقي، وماكنتش حااكلمك ولا أقرب منك، كنت بس حا اشوفك أطول وقت ممكن.

أحست أنها أمام رجل غير كل الرجال التي عرفتهم، وتحركت فيها رغبة لتجربة لم تعشها من قبل فقطعت الكلام بصورة مفاجئة وسألته سؤالاً قاطعاً:

- جلال احكيلي حلم من اللي انت حلمتهم بي.

احمر وجه جلال وتعثرت الحروف بين شفتيه وبدأ يستخدم مقدمات يكتسب بها وقتاً للالتفاف مثل: في الواقع.. وحقيقة و.. و... ولم تتح له فرصة الاصطناع أو التأليف. فقالت له متدللة:

- جلال ماتكدبش.. انت بيبان عليك.. وماتتكسفش. احكيلي. أنا عايزة أعرف كنت بتعمل إيه معايا في الحلم.

ازداد الطلب وضوحاً وأصبح عليه أن يقول الصدق – وهو ما لا يقوى عليه ولا يليق من وجهة نظره – أو أن يعتذر بطريقة تفهم منها ولا تسمع:

- معلش يا كتورة ما أقدرش.
- واشمعنى قدرت في الحلم؟
- مش عارف. في الحلم بيكون الإنسان هو الشخصية اللي هو عايزها، والناس اللي في الحلم بيعملوا اللي هو عايزه من غير ما يحرجوه.
- تحب الحلم يبقى علم؟

انعقد لسانه. لم يصدق ما سمعه، خشى الرد حتى لا يصدم بأنها لم تعرض ما فهمه. سكت لحظة، ولاحظت خجله الشديد فحررته منه:

- انت بتكسفني يا جلال. أنا أول مرة أعرض نفسي على راجل ويرفض.
- لا.. لا انتي فهمتيني غلط. أنا ما برفضش. أنا مش مصدق.

طمأنته وهونت عليه بادئة بسؤال:

- انت عرفت ستات قبل كده؟
- لا.. لا. خالص.
- يبقى حظك حلو علشان حاكون أول واحدة تعرفها..

كانوا قد وصلوا إلى مدخل الحارة فقالت له:

- أنا حا اسبقك بكام خطوة والباب اللي حا ادخل فيه، تدخل ورايا..

قالتها ولم تدع له فرصة لمزيد من التأكيد، سبقت بخطوات وتبعها حتى دخلت في بيت أم حلاوتهم الذي يعرفه جيداً، ولا تعرف هي أنه يعرفه، ودخل فوجدها تنتظره خلف الباب و أمسكت بيده وقادته إلى سلم داخلي أوصلها إلى الطابق الثاني، وفي غرفة مجاورة لبداية السلم المؤدي إلى السطح في الطابق الثالث. أغلقت الباب..

وبدأت بممارسة مهنتها بحرفية عالية، فتخلصت من ثيابها قطعة قطعة تحت ضوء خافت، ثم ساعدته في عمل نفس الشيء بتوافق زمني محسوب، واستلقت أمامه في فراش دعته لمقاسمتها فيه.. استلقى إلى جوارها مستسلماً لقيادتها فأكملت تجريده من ملابسه، وكذلك فعلت، وتهيأ للقادم وزالت رهبته وأحس ثقة في نفسه أضافت بسلوكها جرعات متزايدة منها واستدار إليها وما كادت يده تمتد في اتجاهها، حتى سمعا ضجيجاً، وأصواتاً خشنة تصعد إليهم من الطابق السفلي، واستخلصا جملة واحدة:

- وقعتي يا أم حلاوتهم.. وجه يومك..

انتفضت حلاوتهم صارخة:

- البوليس. إلبس هدومك بسرعة وحاول تهرب..

انتفض.. ستر نفسه بالغيار الداخلي، واختطف باقي ملابسه وحذاءه وقفز فخرج من الغرفة وصعد السلم إلى السطح، فكان يعرف أن بالسطح شباكاً يطل على سلم البيت المجاور الذي يسكنه.. وعلى السلم المجاور أكمل ارتداء ملابسه..

ونزل إلى الحارة ليجد زحاماً أمام منزل أم حلاوتهم، وتجمع الناس حول عربة الشرطة الواقفة أمامه يتابعون خروج بعض النساء والرجال متجردين من معظم ملابسهم، فيدفعون إلى سيارة الشرطة.. وأغلق باب البيت، وانطلقت السيارة واستمرت تعليقات أهل الحارة:

ولم يعرف جلال بعدها – ولا حاول أن يعرف – ماذا جرى لأم حلاوتهم ولا للمومس الفاتنة الدكتورة؛ حلاوتهم.

المحتوى

القصة	الصفحة
مرسم	٥
مدام حريري	١٥
صاحب البدلة	٤٧
أربعة طوابع	٥٧
ديك البرابر	٨٣
أم حلاوتهم	٩٧

رقم الإيداع

٢٥٥٤٣ /٢٠١٨

المؤلف فى سطور

- محمود محمد علي مبروك و شهرته : محمود مبروك
- عضو اتحاد الكُتَّاب – عضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية
- من مواليد الغربية عام ١٩٤١
- حاصل على بكالريوس تجارة – دبلوم المعهد العالي للدراسات الإسلامية.
- قاتل مع القوات المسلحة في اليمن – حرب ١٩٦٧ – حرب الاستنزاف – انتصارات أكتوبر
- شغل عدة وظائف انتهاءً بمدير عام في شركة النصر لصناعة السيارات.
- **عضو مجلس إدارة سابق بكل من:**
  - شركة النصر للسيارات – صندوق التأمين الخاص بالشركة.
  - شركة المهندس الوطنية لصيانة السيارات "مهندسكار".
  - نائب رئيس مجلس إدارة نادى ١٥ مايو الرياضي والاجتماعي.
- **مارس الأعمال الصحفية التالية بعدة صحف:**
  - كاتب مقال – مستشار تحرير – مدير تحرير – الدسك المركزي – رئيس تحرير تنفيذي .
- **له العديد من الكتب السياسية والعسكرية والقصص القصيرة، منها:**
  - لقاءات مع جمال عبد الناصر.
  - يوميات ضابط في حرب اليمن.
  - نافذة على القمر "روايـــة"
  - السيد المحافظ "مجموعة قصص قصيرة"
  - حكاية رشاد " مجموعة قصص قصيرة"
  - عازف العود. "مجموعة قصص قصيرة"
  - رؤي صدقتها الأيام. "مجموعة مقالات سياسية " (تحت الطبع)
  - كان وياما كان (تحت الطبع)
- **حاصل على جائزة الشئون المعنوية للقوات المسلحة عن القصص القصيرة:**

* ساعة في سيناء. * عائلة المصري. * اختراق السحاب.

محمود مبروك